ذهب مع المطر

قصص

صدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة
في إطار الصندوق الوطني لترقية الفنون و الآداب

محمد الصدّيق معوش

ذهب مع المطر

قصص

منشورات الشهاب

© منشورات الشهاب، 2009.
10، نهج ابراهيم غرفة، باب الواد، الجزائر.
www.chihab.com

ردمك : 978-9961-63-778-4
الإيداع القانوني : 2009-1504

مقدّمة

قراءة عاجلة في مجموعة «ذهب مع المطر»

قال الأستاذ مرزاق بقطاش : اكتبوا عن أحيائكم وقراكم .. بهذا يرتقي الأدب الجزائري.

لعلّ صديقي محمّد الصديق واحد من الذين يؤمنون بهذه المقولة و إن لم يخبرني أنّه سمعها من الأستاذ بقطاش أو قرأها عنه، ولكنّه انتهج منهج المحليّة عساها تكون بداية موفقة لأمور عظيمة في المستقبل.

وتجد «سوف» المدينة والقرية التي تربّى في أحيائها وأزقّتها تلوّح بيديها الرملية التي لا يقرّ لها قرار من البداية مع «نفاطة في المولد» وهذه الاحتفالية الخاصة الممزوجة بالمعتقدات، مع براءة الطفولة في «قبة سيدي عبد المالك» ووقف مع الخيبة القومية «على الحافة» وعرف «الطبقات من واقع المجتمع، وجرّب لذّة الولد» يحيى «وعانى من لحظة فقد الوالد في «أبوك الدايم الله» بتناقضات المشاعر ودرجات ثبات النّفوس فكانت مهرجانا

من متنازعات الحياة كمهرجان «أوسكار» وتضارب نوعية الأفلام فيه، وفي النّهاية سنقول جميعا إنّهـا : «قصّة حياة» أجد المجموعة صخبا هادئا كأمواج بكماء تضرب ساحلا صخريا.

والمميّز عنوان المجموعة «ذهب مع المطر» تلك القصّة التي رمت بنا إلى حقبة سوداء مظلمة مازلنا نجد آثارها القوية إلى اليوم، ساق الأحداث بنوع من المرارة والتراجيدية في حوار لا ينفكّ ينقطع رغم صمت البطل في أغلبه، كما نجد الأمّ تشاركه أغلب البطولة، بل وتنازعه الدور الأهمّ، ولكن رسّخ فينا بلغة قريبة المنال أنّ البطل الوحيد هو «حميد»، والأجمل أنّه تركنا نفكّر في مآل حميد بل لم يكتف بهذا، فتلاعب بمشاعرنا لنتمنّى له السلامة ... وكـــم «حميد» فينا ذهب مع المطر، ومع الريح، ومع الصحو ؟!!

لغة القصّة تراوحت بين البساطة إلى أقصى الحدود كما هو الحال في «ذهب مع المطر» وشاعريّة في «أوسكار» تناسب سياق الرومانسية الجميلة بنوع من المرح والحزن، و «ولدي يحيى» رعشة قلب مفجوع، وتقريرية قريبة من تقريرية الصحف والمجلات في «صورة من الحياة» ...

تنوع اللغة يوحي لنا بأنّ القاصّ يبحث عن دربه الخاصّة في كلّ هذه الدروب التي يخبرنا أنّه اجتازها بنجاح، ولعلّ دربه كان في السهولة التي قدّم بها سردياته كما يشعر بها وبالتفاصيل الحياتية للناس كما يراها، فلهذا تجده في القصّة مرّة متخما بـ :«الأنا» وتارة يتماهى مع «الهو» بتناغم جميل، استغلّ فيه كلّ الرقعة الجغرافية المتاحة لصحراويّ يجوب الأرض الممتدّة من الصين إلى كثبان سوف الشاهقة، يحبّ ويكره ويحزن ويتألم ... إنسان يعيش الحياة ومع الناس.

أقول في الأخير ما قال الأستاذ بشير خلف في مكان آخر : (إنّ هذه المجموعة القصصية لا أخالك تتركها من بين يديك قبل أن تقرأها من البداية إلى النّهاية، بل ستعود لقراءتها لتستمتع بجماليات الفنّ السردي الزاخر بالأحاسيس الإنسانية ... إنّك لا تملك إلا أن ترى نوعا من رشّ الملح على جراحنا) فنبتسم في لحظة الألم.

زكرياء نوار ـ كاتب

نفّاطة في المولد

اليوم هو أول يوم من شهر ربيع الأول، لا شكّ أنّهم سيصدحون بالنشيد والقصيد، ستعجّ مساجد البلدة بعد صلاة المغرب بالقصائد والمدائح احتفالا بالمولد النبوي. سيكون هذا طيلة الأيام الستة الأولى من الأيام الاثني عشر،ثم في الستّة البواقي يتحوّل الاحتفال إلى ما بعد صلاة العشاء. تعوّدت الآذان سماع البردة والهمزية وغيرهما من القصائد والمدائح، ويتلو الأئمة نصوصا من السيرة العطرة ويكبّر النّاس، ويهلّلون ويكثرون من الصلاة والتسليم على النبي الكريم صاحب الخلق العظيم :

صلّ يا ربّ ثم سلّم على من

هو للخلق رحمة و شفـاء

والأمر الأهمّ – أيّها السادة ـ في هذه الأيام هم الأطفال،لا شكّ أنّه موسم لهوهم ومرحهم، إنّ أحبّ شيء لديهم هو هذه المفرقعات وذلك الدويّ الرائع الذي تحدثه الألعاب

النارية، إنّهم يجدون متعة بالغة في تلك الألعاب.ولكنّ هذه المحارق والمفرقعات التي يستعملها الصبيان اليوم لم تكن معروفة زمن طفولتنا وما كان منها فقد كان بسيطا جدّا وأغلب الأولاد يلجأون إلى أشياء يبتكرونها بأنفسهم أوهم توارثوها عن أجيال سابقة،وذلك كأن يأخذوا القصبة الرقيقة الماسكة لشفرة الحلاقة ثمّ يثبّتونها في ثقب في قطعة خشبية،ثم يوضع شيء من الكبريت ويوضع عليه مسمار مشدود بخيط أو سلك إلى طرف الخشبة الخلفي، ثمّ يقوم الطفل بضربها على جدار صلب أو عمود كهربي إسمنتي فتحدث دويا هائلا ممتعا، ويفعل الأمر نفسه مع صمّامات العجلات،كما يستعمل بعضهم (الكربون) بطريقة ضغط الهواء، وقليل من الأطفال من يستعمل هذه المحارق والمفرقعات العصرية وذلك بسبب قلّتها وغلاء ثمنها في تلك الأيام فقد تكون الواحدة بدينار أو دينارين أحيانا ،وأنّى للصبيّ أن يحصل على الدينار أو الدينارين في ذلك الزمن ؟

تبقّت ثلاثة أيام فقط على صبيحة المولد وجيبي هذه الأيام قد سعد بحمل دينار أعطتنيه جدّتي مكافأة لي إذ أوصلت لها صرّة من ثياب وصوف وتمر إلى إحدى قريباتها في الطرف الأقصى من الحيّ، أوصلتها فحصلت على

الدينار وبعض الأدعية ليس لصبي مثلي أدنى اهتمام بها أمام ذلك الدينار...

كان إخوتي الصغار يتحدّثون عن المفرقعات بإعجاب كبير ويتمنّون لو يملكون واحدة،وبدؤوا في اقتراح بعض الخطط للحصول على دينار، وشعرت حينئذ أني فعلا أنا الأخ الأكبر الذي عليه أن يسعد إخوته الصغار، واستشعرت بطعم الزعامة وروح المسؤولية ولذّة الواجب كأخ أكبر يضحّي في صمت،ويبذل ما هو في حاجة إليه دون مبالاة، ومن غير ما تردّد انطلقت خارج البيت، وفي الشارع سألت بعض الصبية عمّن يبيع النفّاط، فقالوا : أهل فلان. وسمّوا إحدى البيوتات المعروفة في الحي ببيع بعض الأمور المرتبطة بمواسم معينة ؛ كالأدوات المدرسية، الحلويات أيّام عطلة الربيع وأيضا بعض المثلجات البسيطة في الصيف ، اتجهت مسرعا صوب ذلك البيت فوجدت صبيا جالسا على العتبة مالئا فمه بقطعة خبز كبيرة فسألته :

- هل عندكم نفّاط؟

قال بلهجة لا يكاد يبينها :

- كنّا نبيع...

قلت :

- والآن ألا تبيعون؟

قال :

- لا. لقد فرغ كله...

قلت بلهجة الرجاء :

ـ هيا ادخل واسألهم...

فرفع يده معظّما اليمين :

- أقسم بالله ـ توا ـ جاء طفل قبلك وقالوا له : قد فرغ. لقد فرغ كلّه، المساء أو غدا ربما يكون لدينا الكثير.

أحسست صدقه هذه المرّة، وزادت رغبتي في الحصول على هذه المفرقعة واستيقظ ظمأ أشواقي إليها وتأجّجت نيران الطلب فيها كحسناء أغلي مهرها، ثمّ سألته كالمستعطف :

- ألا تعرف بيتا آخر يبيعون؟

حرّك رأسه يمينا وشمالا تعبيرا عن (لا)، لكنّه ما لبث حتى هبّ واقفا إلى جنبي وفمه لا يزال مملوءا بالخبز وأشار بيده إلى الأمام :

- سر حتى آخر الشارع ثم در على يمينك وامش قليلا واسأل هناك عن بيت يبيعون النفّاط.

قلت :

- هل أنت متأكد ؟

قال :

- والله قد كنّا نشتري من عندهم...

أسرعت راكضا إلى الأمام ورغبتي في الحصول عليها تزداد ، وما كدت أبلغ منتهى الشارع فإذا صبي يهمّ بتفجير واحدة فبادرته بالسؤال :

– قل لي ممن اشتريتها ؟

فردّ :

– هل تبحث عن واحدة؟

قلت بلهفة واضحة :

– نعم أريد واحدة، والآن أريدها.

قال :

– عندي واحدة أبيعك إياها.

قلت : – بكم تبيعها ؟

قال : – بدينار مثلما اشتريتها.

أخرجت الدينار وسلّمني النفّاطة وتمّت الصفقة في صمت، بدأت فرحتي تصّاعد من أخمص قدمي. ثمّ تولّيت متراجعا إلى البيت في خفّة، وبعد مسافة معتبرة من السير خبت سرعتي وفترت همّتي وأحسست بشيء من الأسى والحسرة يتسلّل إلى فرحتي،وبدا لي وكأنّ الأمر لا يستحقّ كلّ هذه الضجّة والصخب فقد كانت رغبة الحصول أكثر متعة من الحصول ذاته،الأمل أفضل من الملك ، ووسوس لي شيطاني بأنّ الصبي الذي باعني هو من ربح الدينار، لماذا باعها

إذن؟ ألم يكن قد اشتراها من قبل؟ أ وندم هو الآخر؟ ولكنّه فجّر واحدة قبل أن أكلّمه، ذلك هو السرّ إذن، لقد باعها بعد أن جرّب واحدة أو أكثر وعرف متعتها وأنا بعد لم أجرّب، وعلى رأي المثل : تجربة خير من جحش.

لكن هذا لم يكن كافيا لإطفاء حسرتي وقلقي، وفكّرت في فرحة إخوتي الصغار فاستشحذت همّتي واستجشت نشاطي وعدت إلى المشي بسرعة ثانية وحين دخلت البيت فرح الإخوة فرحة عارمة والتفّوا حولي يتجاذبونها ،وقال بعضهم :

- نفجّرها الآن.

ثمّ قالوا في صوت واحد :

- لا، نتركها إلى الليل...

وبقوا يتحدّثون عنها ويعيدون النظر إليها كلّ واحد منهم على حدة، وكان عليّ أن أقسّم الزمن بينهم بالسوية، ثمّ أخذتها منهم أخيرا...

ولمّا جنّ الليل وألقى بسرباله الأسود على البلدة استقبلته الألعاب النّارية بحفاوة بالغة وهتكت حلكته كما هتكت صمته مآذن المساجد الصادحة بالقصائد والمدائح النبوية، الآن هو الموعد المتفق عليه بيني وبين إخوتي في تفجير النفّاطة، بدأ الاختلاف عند بداية تطبيق الاتفاق -

لعلي أدركت هذه الحكمة فيما بعد ـ و اختلفنا هل نفجّرها في البيت أو خارجه؟ وبعد أن خرجنا من البيت جاءتنا فكرة الذهاب إلى المسجد وعندما وصلنا هناك وجدنا جمعا من الأطفال يفجّرون بعض المفرقعات والألعاب النارية،وعندما هممت بتفجير نفّاطتي تراجعت وقلت في نفسي: (هذه واحدة وستذهب هباء وهؤلاء الأطفال ربما يملكون عددا أكثر منّي، وصبيحة المولد بقي لها يومان فقط). و أخيرا أقنعت إخوتي الصغار بإرجائها إلى صباح يوم المولد...

ها هو ذا الصبح الأغرّ قد أسفر والليل المبارك قد أدبر،قالت أمّي (إنّ الرجال يبيتون في المسجد يقصّدون).

ذهبنا باكرا إلى المسجد واجتمع الرجال ببرانسهم وقشاشيبهم الصوفية الخشنة في المكان المخصّص لتحفيظ القرآن في الصيف وكان السقف مغطى بالقصب وبعض صفائح القصدير فقط،بدؤوا بالقصيد وجاء الناس بالشاي والحلويات وقصاع العصيدة،كل الأطفال يحبّون أكل العصيدة هذا اليوم إلا ذلك الصبي الذي يدعى (الذيب الاحمر) فقد كان يكره العصيدة والرياضيات في المدرسة. ومن حين إلى حين ينادي أحدهم فيهبّ الأولاد إلى القصعة فيذرونها خاوية، وتلا الإمام في تلك الصبيحة فقرات من

السيرة النبوية وتحدّث عن حليمة السعدية والعنكبوت والحمامة وكانت تعقب من حين إلى حين بصوت الجميع :

عطّر اللهم قبره الكريـــم

بعرف شذيّ من صلاة وتسليم

اللهمّ صلّ وسلّم وبارك عليـه

اللهمّ صلّ وسلّم وبارك عليـه

وهاأنذا أحاول مرّة أخرى الإقدام على تفجير النفّاطة وقد كان الزحام شديدا والأولاد الأشرار يتحرّكون بكثرة حول الجامع وأعينهم تلوح بالمباغتة، يترصّدون أيّ صبي ضعيف فينقضّون عليه انقضاض الكواسر الشرسة، خفت أن يخطفوها منّي فقررت إرجاءها حتى آخر الصباح ثمّ استقرّ رأيي وإخوتي على العودة بها إلى البيت،وفي البيت هممنا بتفجيرها وما إن أشعلت فتيلها وابتعد إخوتي الصغار واضعين أصابعهم في آذانهم،ورميتها وسط البيت حتّى هرعت أمي صارخة ترمي التراب على الفتيل وتقول:

- جدّتكم.. جدّتكم مريضة.. إنها لا تطيق.

فأسرعت لإطفائها ومن حسن الحظ بقي من فتيلها شيء، مما يعني أنّ هناك أملا في تفجيرها، انطلقنا خارج البيت ووقفنا لإشعالها، شعرت في البداية، بخوف وأنا أرى قصر فتيلها ،لقد خفت أن تنفجر بين أصابعي، وبقيت أتأملها

ملتمسا مخرجا ما من هذا الخطر إذ لابدّ من التفجير ولا رجعة في ذلك،فقط قليل من الشجاعة تأتي بها الرغبة الظمأى، وأشار أحد الصبيان بفكرة أخرى فقال :

– اقسمها شطرين وأشعل كلاّ منهما وستحدث مشهدا ناريا جميلا.

كان المشهد الناري الجميل الذي تحدّث عنه الصبي مغريا حقّا ولكنّ الرغبة ظمأى والأشواق نيران لا يطفئها إلاّ دوي هائل يصمّ الآذان وتفزع له الفرائص الفتية ليلقي بظلاله على أحلام طفولة جيل بأسره... وأخيرا تشجّعت وتقدّمت و وضعتها منتصبة على الأرض وأشعلتها بسرعة خاطفة مبتعدا عنها وكلّنا على استعداد لسماع الدويّ الهائل حتى استحالت أعشار الثانية إلى حقب زمنية منبسطة صامتة ظامئة إلى ذلك الانفجار المرتقب...

ولكنّ الدويّ لم يحدث...

وساد الصمت المحبط. وشحّت الوجوه عن التعبير إلاّ من ملامح الخيبة... لم يبق في الأفق إلا حلّ واحد وهو ما أشار به الصبي، التفت حولي بحثا عن صاحب الفكرة فإذا به قد اختفى وابتلعته لجّة اللغط الذي تموج به شوارع البلدة في تلك الأضحية المباركة... وبقينا نفكّر في كيفية تطبيق تلك الفكرة.

كانت الأصوات تأتي من بعيد ومن قريب، من أقاصي المدينة وأطرافـها المجاورة، لقد كانت أصواتا مدويّة ومجلجلة، متفجّرات لها دوي وأصوات كدوي وأصوات القنابل الهائلة.. فرقعات مفـزعة متتالية.. ثمّ دويّان قويّان متتابعان أعقبهما بعد صمت غير طويل الأمد دوي هائل منفرد...

قبّة سيدي عبد الملك

لقد عشنا – والحقّ يقال – طفولة شرّيرة ملأى بالشقاوة والشغب والطيش، يستبدّ بنا جنون اللعب إلى حدّ الجري والقفز فوق الأسقف والسطوح وقباب البيوت القديمة، نهدّم دور الحمام ونخطف بيض الدجاج وأفراخه،ونكسر مصابيح الشوارع ونخرّب أجراس البيوت المرفّهة، وقد نرتحل عند الهجير وقت وقوف الشيطان على ذيله كما يقولون، نرتحل إلى غيطان النخيل فنسطو على الثمار قبل بدوّ صلاحها أو بعده لا يضبطنا في ذلك قانون أو ذوق، ولا يثنينا عنه خطر أو رمضاء أو جروح الأشواك.

انتهت أيام الاحتفال بالمولد منذ أسابيع قلائل وانتهت معها الألعاب النارية والمفرقعات، ولكنّ ما يستدعي الغرابة حقا أن يتفق الأطفال تلقائيا على مواسم ألعابهم ؛ لقد حان موسم لعب المبارزة بالعصي ورمي السهام فما

من حي من أحياء مدينة (الوادي) إلاّ وتجد أطفاله يلعبون هذه اللعبة وقد لا تكون هناك أيّة قنوات اتصال بينهم..

نعم لقد أخذتنا حمّى اللعب إلى الجري فوق السطوح والقباب القديمة غير آبهين بصيحات الأهالي : (أن انزلوا يا أولاد الشرّ)، بل كان هذا يزيد من متعة لعبنا خاصّة وأنّ قرص الشمس قد أخذ في الاصفرار شيئا فشيئا.. كذلك لم نكن نتورّع عن بعض التصرّفات البالغة في الطيش إذ وصل بي الأمر إلى أن وقفت فوق قبّة قديمة لغرفة مهجورة وسط الحيّ..... (وتبوّلت).

وما كدت أنتهي حتى وقف أحد زعماء الشرّ من أطفال الحيّ وبدأ يصيح : - أوو.. أوو.. أووك... ماذا فعلت؟ فالتفت إليه وقد تملّكني الهلع وقلت : - ماذا فعلت؟

التفت حوله وقد التحق به بعض الصبية ثمّ قال : - ألا تعرف هذا المكان الذي بلت فيه؟

قلت : - إنها قبّة غير مسكونة ليس غير.

قال : - ماذا يفعل النّاس في المولد عندما يطهّرون أولادهم ألا يأتون إلى هذا المكان؟

قلت : - بلى...

قال : - وأيام عاشوراء ألا تأتي البنات إلى هذا المكان؟

قلت : - بلى.

قال : - أتعرف ذلك...؟

قلت : - ولكن لماذا يأتون إلى هنا بالذات؟

قال بصوت مشفق هامس : - يأتون ليزوّروا الأولاد للبركة لأنّها قبّة ولي.

قلت : - ولكنّي نسيت.. ماذا أفعل؟

قال وكأنّه يستهين بخوفي : ـ نسيت؟ كيف تنسى؟ ألا تعرف ماذا سيحدث لك لأنّك تعدّيت على هذا الولي؟

قلت كالمسترحم : - ماذا سيحدث لي؟

قال : - ستحترق أو تتحوّل إلى امرأة أو إلى حيوان أو تموت أو أيّ شيء...

وقهقه قهقهة خبيثة طويلة... ها ها هاااااااااااااه...

وحقيقة لم تعد بي أية رغبة في مواصلة اللعب ولكنّي خشيت أن يقولوا (خوّاف)، وواصلت معهم على مضض حتى دنا وقت المغرب فانسللت إلى البيت، ودخلته على غير عادتي في ذلك الوقت، بدأ القلق يتمكّن منّي، قمت بتصرّفات دونما رغبة أو هدف ؛ شربت ماء وأكلت خبزا وسألت عن الساعة،توضأت أيضا وصلّيت مع أنّي لم أكن جادّا أو مواظبا في أمر الصلاة.. وما إن أتّمت جدّتي نوافلها

وأورادها حتى دنوت منها وتوسّدت رافعا بصري إلى السماء وبادرتها : – جدّتي..

– نعم يا روحي..

– من الذي بنى تلك القبّة الموجودة في شارع (اربيدة) ؟

– يقول الناس يا ولدي إنّ وليا صالحا اسمه (سيدي عبد الملك) مرّ يوما في هذا الشارع فدعاه رجل إلى العشاء وحينما أحضر الطعام قال سيدي عبد الملك للرجل : (ادع الناس إلى العشاء)، فقال الرجل : (ولكنّه لا يكفيهم)، فقال سيدي عبد الملك : (ادعهم والأمر عليّ) فأخذ الرجل ينادي في أهل الحيّ والمارّة فأكلوا جميعا حتى شبعوا، وعندها علم الناس أنّه وليّ، ثمّ بنيت القبّة هناك في ذلك المكان...

قلت لجدّتي : أ هو مدفون في تلك القبّة؟

قالت : لا، صلّى الفجر وأكمل حلقة الذكر وبعدها لم ير له أثر...

قلت لها : هل هو رجل يفعل الخير دائما ويسامح الناس؟

قالت : نعم إنه وليّ من أولياء الله الصالحين،ومن آذاه فإنّ الله سينتقم منه...

ووقعت كلماتها كالصدمة عليّ،وازداد خوفي،ثمّ سألتها متلّمسا أملا ما :

– وإذا كان الإنسان غير متعمّد يا جدّتي؟

قالت : لست أدري يا ولدي نحن (مسلّمين مكتفين)، أولياء الله الصالحين ربّ ينفعنا ببركتهم ويرضيهم عنّا...

ولم أستطع بلع ريقي من شدّة الخوف، إذن الصبي على حقّ وكلامه صحيح، ماذا سيحدث لي يا ترى؟

أصبحت كالمهووس، أخرج من البيت ثمّ أدخل، آكل وأشرب، فكّرت في الذهاب إلى المسجد ولكنّي عاودت الدخول إلى البيت وسألت عن العشاء...

أخذ الجوّ يميل إلى البرد قليلا واجتمعت العائلة كالعادة في غرفة الجدّة للسمر، أخذت مضجعي في زاوية من زوايا الحجرة وبقيت استمع إلى حديثهم مستأنسا به وبوجودهم.. ولكنّ مشاهد الختان أيام المولد، وأيام عاشوراء كانت تمتزج مع حديثهم...

مجموعة من البنات يحملن أطفالا على جنوبهنّ،أولئك هم الأطفال الذين سيختنون في الغد وهنّ يلبسن أثوابا بيضاء و يغنّين في صوت واحد :

يا لمطهّر زوز أولاد

خمسة في عين الحسّاد.

ويوم عاشوراء صبايا يحملن عراجين تمر فارغة يربطن على شماريخها خيوطا بيضاء وخضراء وأخرى حمراء، يدخلن القبّة ويخرجن منها وهنّ يغنّين بنغم عجائزي :

ارفع الاوكـاس يا ربّ

عـن هـذي النّـاس....

ثمّ يجلن في الشوارع ويلجن البيوت حتى يصلن في النهاية إلى مكان خال في طرف من أطراف الحيّ ويرمين عراجينهن ثمّ يعدن أدراجهن...

ما زلت خائفا وقلقا ولكنّ التفكير الطويل وأحاديث السمر بدأت تغازل جفوني، وبدأ النعاس يدبّ في جسدي، وأخيرا نمت... وفجأة استيقظت...

لقد أطفئ نور الغرفة،وأحسست فعلا أنّي وحيد أواجه صمت الليل والظلام لقد شعرت بخوف شديد، إنني لا أرى نفسي في هذا الظلام الحالك، ترى هل عاقبني ذلك الولي الصالح ؟ هل أنا امرأة الآن؟ لا يمكنني أن أتحسس جسدي الآن حتى لا أتحقق من الكارثة المفزعة. وما الحـلّ إن أنا تحوّلت إلى. امرأة؟ هل أبـقى في بيتنا أم أهرب إلى مكان آخر؟ وإذا بقيت في البيت يجب عليّ أن أجلس في غرفة وحدي وذلك حتى لا يراني أطفال الحيّ،وسأتوقّف عن الدراسة كي لا يتحدّث عنّي التلاميذ والمعلّمون ويشيرون

إليّ بأصابعهم ويقولون : - تلك هي البنت التي كانت صبيا يوما ما !! وعندما ينتشر الخبر في الحي ستأتي نساء الجيران وبناتهن لرؤيتي، كيف سيكلّمونني يا ترى؟ وهل سيزوجني أهلي إذا كبرت؟ هل سيقبل الرجال امرأة كانت رجلا في أحد الأيام؟ إنهم ولا شكّ سيخافون أن تتحوّل إلى رجل في أيّة لحظة من لحظات الحياة،وماذا سيفعل الزوج والأولاد عندها؟

إذن من الأفضل أن أفرّ هاربا إلى بلدة أخرى لا يعرفني فيها أحد، وأجعل من نفسي امرأة متسوّلة أتجوّل في الأسواق وأذرع الطرقات وأجلس في المحطّات.. وقد أصادف رجلا فقيرا وأتزوّجه،ولكن هل عليّ أن أخبره بالحقيقة أولا أخبره؟ ماذا لو سألني عن أهلي وبلدي؟ بم أجيبه عندها؟ ولكن ماذا سيفعل أهلي عندما ينهضون في الصباح ولا يجدونني؟ آه.. وجدتها سأترك لهم ورقة صغيرة مكتوبا عليها : (لا تبحثوا عنّي...)

ستبكي أمّي كثيرا وكذلك إخوتي وأخواتي، ووالدي سوف يجوب البلاد بحثا عنّي، آه كم هو محزن ومؤلم أن يجد المرء نفسه بعيدا عن أهله. كم أنا مسكين ومستحقّ للشفقة... ذهب النوم والأمان، إنّ الخوف يملأ قلبي الآن،كيف لولي صالح طيّب يحب الناس ويفعل الخير كيف له أن يعاقب

طفلا صغيرا مثلي ارتكب في لحظة طيش حماقة صغيرة كثيرا ما يرتكب الأطفال مثلها ؟ وبعد لحظات علا نباح كلاب الحيّ علوا شديدا حتّى أحسست كأنّها عند باب البيت،أو هي في وسط البيت فازددت خوفا إلى خوف وشعرت بالذعر،هذا الذعر طالما كنت أشعر به في الصيف عندما ننام في حوش البيت ويعلو نباح الكلاب في منتصف الليل وأتمسّك بالغطاء تمسّكا شديدا ولا أكشف عن وجهي حتّى الصباح.. ولكن ماذا لو تحوّلت إلى كلب؟ يا للسوء أن أكون كلبا وأربط أو أطلق في السطوح، ولكن أيها أفضل أن أكون كلبا أبيض أو أحمر أو أسود؟ ليس حسنا أن أكون من كلاب البيوت لأنني كنت طفلا يوما ما ومشاغبا أيضا.. سيطردني أهل الحيّ لأعيش مع الكلاب المتشرّدة في الصحراء ويلاحقني الأولاد المشاغبون بالحجارة ولكنهم إذا تذكروا أنّي كنت صديقهم في أحد الأيام، ربما سأكون واسطة بينهم وبين الكلاب.. ولكن الكلاب هل سيتعرّفون عليّ وينتقمون مني لأنّي كنت ألاحقهم بالحجارة مع بقيّة الأطفال المشاغبين لكنّ الكلب الأسود الذي نسميه (زعيم الكلاب المتشرّدة) يبدو حكيما ومتفهّما وربّما سيدافع عنّي ويعطف عليّ لأنّي ولد صغير، كم يبدو الأمر ممتعا أن أتعرّف إلى عالم الحيوانات وأستمع إلى كلامهم وأفهمه

وأعرف كيف يتحدّثون مع بعضهم، ولكن الأمر ليس كذلك إذا كان المرء طفلا ثمّ تحوّل إلى كلب.. ماذا لو أنا جرّبت الكلام في هذه اللحظة؟ قد يكون هذا الكلام نباحا وتفزع جدّتي وتنادي في أهل البيت، وعندها سيطردونني خارجا، ولا يمكنني أن أقول لهم أني ابنكم لأنّه سيكون مجرّد نباح لا يفهمونه، وعندما يجدونني في الصباح يظنون أني أنا الذي أكلت ابنهم، بينما أنا هو ابنهم المسكين الذي طردوه كلبا إلى خارج البيت ثمّ اتهموني بأكلي،وبدأت الدموع تنضح من عيني، آه.. يا للأسى !!

وقد لا يحدث ذلك كله وأموت.. الموت يا للهول، ولكنّه سيريحني من تلك المتاعب كلها،لا يتحدّث عني الناس، ولا يلاحقني الأولاد بالحجارة.. ولكنّي سأموت وأنسى أمر الدراسة والأعياد واللعب.. سيبكي أهلي من حولي وأنا ممدد على الفراش وعليّ غطاء كبير يغطّيني كاملا،ويا للأم المسكينة وهي تبكي ولدها الصغير الذي لم يكن مريضا ومات فجأة ! وستحكي الجارات رواية عنها أنه قبل موته بليلة كان يتصرّف تصرّفات غريبة تدلّ على أنّه سيموت فليس من عادته أن يأتي البيت قبل المغرب، أو يحرص على الوضوء والصلاة.. كان في العادة يسهر مع الأولاد خارج البيت، ولكنّه هذه الليلة كأنه شعر بقرب موته فأتى

قبل المغرب وتوضّأ وصلّى وجلس مع جدّته وكأنّه كان يودّعها، وكان يجول في البيت ويلقي عليه النظرات،لقد كانت نظرات الوداع، وأكل العشاء دون أن يغضب منه أو يطلب غيره، إنها تصرّفات إنسان سيموت غدا.. يا للشفقة ! لقد نام قبلنا جميعا، لا شكّ أن اقتراب الموت أثقل جسده وأشعره بالذبول،كل الناس الذين يموتون فجأة يشعرون قبل موتهم بقليل بالميل إلى الراحة والنوم.. سيعلو البكاء والنواح في الصباح الباكر ويهرع النّاس إلى بيتنا ويعرف الصبيان أنّي مت، وسيخبرهم ذلك الصبي أنّ هذا بسبب قبّة ذلك الولي الصالح لأنه آذاه ولم يحترمه فعاقبه بالموت،لكن يا ترى هل سيعلنون عن وفاتي في المسجد : «كلّ نفس ذائقة الموت، إنا لله وإنا إليه راجعون، انتقل إلى رحمة الله تعالى... ».

وملأت الدموع عيني وأنا أتحسّس اسمي ينظم إلى قائمة الموتى الذين سمعت عنهم في حياتي،ولكنّهم كانوا جميعا من الكبار فلم أسمع صوت نعي طفل صغير - قط - يموت الأطفال وتبكي أمهاتهم وأخواتهم وإخوتهم ثم يدفنون في المقبرة في مكان قصيّ تسطع عليه الشمس في الشتاء ويكون ذلك مثيرا جدّا للشفقة، آه لقد أحسست بالدموع تنسكب على خدّي، لا شكّ أنّها دموع الفراق تلك التي

تنحدر على الخدين مشكلة خطّا منحنيا قليلا.. ولكنّي الآن مازلت حيّا لأني أبكي وليست الكلاب من تبكي كالأطفال... ولكنّ الذي فكرت فيه قد لا يحدث الآن في أوّل الليل، لا تحدث مثل هذه الأشياء الخطرة في أوّل الليل.. ربما تحدث قبل صلاة الفجر بزمن قصير عندما ينام المرء، في تلك الأوقات أشياء كثيرة تتغيّر.. سوف لن أنام حتّى الصباح كي لا يحدث لي شيء من ذلك،ولكن كيف لي أن أبقى مستيقظا إلى ذلك الوقت.. وبقيت في دوّامة التفكير تلك وقد سمعت كلّ آذان أذّن في تلك الليلة، ثم سمعت حركة خفيفة في الغرفة لا شكّ أنّها جدّتي ستخرج للوضوء، إنّ جدّتي هي إحدى أعاجيب الزمن بالنسبة إليّ، تنهض كلّ ليلة في مثل هذا الوقت وهي رغم فقدها للبصر تذهب بمفردها لقضاء حاجتها وتتوضّأ ثمّ تعود إلى غرفتها لتصلّي وتكثر من الأدعية والأذكار، منذ وعيت وجودي في هذه الدنيا وهي على هذه الحال ؛ تصلّي وتدعو الله وتداوم على ذكره، وتقدّم المعروف للمتسوّلين فإذا سمعت أصواتهم في الشارع يشحذون تنادي في أهل البيت : (المعروف اتقي[1] و يوقّي[2]...)، جدّتي تفعل الخير ولا تؤذي الأولياء بل هي تحبّهم وتقدّرهم لذلك هي تشعر بالأمان دائما...

---

[1] يستر
[2] يحمي

بدأت صلوات جدّتي وأدعيتها وأذكارها تصل إلى أذني فدبّ الأنس في نفسي، وجعل جسمي يذوي قليلا قليلا وأخذ النوم يراود جفوني حتى نمت.. لقد نمت حقا... وفجأة استيقظت وسمعت أصوات الصباح تملأ الوجود من حولي، ويا للمصيبة لقد نمت قبل صلاة الفجر !لقد نمت دون أن أشعر.. ماذا حدث لي يا ترى؟ وسمعت صوت أمّي ينادي من بعيد فتملّكني الرعب، إنها ستجدني امرأة أو كلبا أو لا أردّ عليها،وأخذ صوتها يقترب ومعه خوفي يزداد وتمسّكت بالغطاء تمسّكا شديدا،والصوت يقترب وينادي وأنا أرتعد متمسّكا بالغطاء حتّى امتدّت يد قوية فأزاحت الغطاء فانتفضت واقفا وأنا أصرخ :

– لست متعمّدا.. لست متعمّدا.. لست متعمّدا...

أخذت أمّي ترشّ وجهي بالماء وهي تقول :

– باسم الله.. باسم الله.. باسم الله...

ذهب مع المطر... ؟!

دخل حميد بيتهم حوالي الساعة العاشرة صباحا حاملا بيده ورقة بيضاء. كان الجو مكفهّرا في الخارج، ثلاثة أيام والسماء غائمة دونما مطر...

سلّم حميد أمّه الورقة في صمت وهو يعرف أنها لا تقرأ ولا تكتب.. أمسكتها الأمّ وفي لحظة عجيبة فكّت رموز نظراته الجامدة وهدوئه الغريب ففي مثل هذه الحال تكون حاسة الاستشعار الأمومي أقوى من القدرة على قراءة اللغة المكتوبة.

لقد عرفتها.. إنها الاستدعاء لتأدية الخدمة الوطنية...

وسألته بصوت واهن :

- متى ستذهب يا بني؟

قال بهدوء :

-بعد غد.. بعد غد يكون الرحيل.

وعاد هو إلى صمته، وبقيت هي تحدّق فيه.. رأت في أفق خيالها جماعات الإرهاب تهبط مع جنح الظلام في الليل لتقوم بهجوم عنيف على الثكنة العسكرية التي سيذهب إليها ابنها ،ودارت رحى الذعر في صدر الأمّ.. واهتزت أساريرها وتدفق دمع ثقيل إلى مقلتيها.

ثمّ خرج من بين الشفتين الرقيقتين ذلك الصوت الضعيف الأشبه بالهمس :

– من لنا غيرك يا حميد ؟.. أنت ابننا الأول وأبوك قد كبر، وفي الوقت الذي سنجني فيه غلة العمر تريد أن تتركنا...

قال حميد بهدوء كعادته :

– ولكنه واجب الخدمة الوطنية يا أمي.. والآن كما تعلمين لا يمكن تسلّم أي وظيفة إلا بورقة الأداء أو الإعفاء.. وحتى التنقل في البلاد قد يكون صعبا فما بالك بالخارج ؟

وجاء الوالد بخطاه الثقيلة وقد سمع ما دار بين الأم وابنها.. نظر إلى فلذة كبده نظرة صبورة ثمّ وضع يده على كتفه وقال :

– ملايين من أبناء هذا الشعب قد جاز عليهم هذا الأمر...

قالت الوالدة :

– لكن الحال يختلف عما كان عليه من قبل.. إننا في وقت خطير.. هل سنبقى هكذا مدى الدهر نقدّم أنفسنا وأبناءنا، لقد رفعنا بالأمس راية الاستقلال،إني خائفة يا أحمد.. خائفة على ولدي.

وقال الوالد بلهجة حازمة مخاطبا زوجته :

– أين ربّك يا عائشة ؟! أين إيمانك؟!

– كل شيء بأمر الله ولكن.. !!

– لكن ماذا ؟!

في أمسية تلك الليلة انشقّت السماء عن مطر غزير وغرقت الطرقات في الأوحال، ولزم الناس دورهم إلا من حالات نادرة كجلب الغاز أو الطعام أو حالة مرض خطير..

رتب حميد أشياءه استعدادا للسفر في الصباح الباكر... ونام كأن كل الأمور ستجري على المعتاد.. أمّا أمّه فقد باتت شاردة اللبّ دامعة العينين، قلقة الروح تتقلب كأنّ بمضجعها الشوك..

«أين ربك يا عائشة؟.. أين إيمانك؟»

دوي الرصاص.. لا.. لا..

حميد سقط في الميدان.. لا.. لا..

أريد ولدي.. لا أريد أوسمة.. لا.. أريد ولدي...

استيقظ الوالد لصلاة الفجر ثم استيقظت زوجته عائشة أيضا...

ذهبت لتوقظ حميدا فوجدته قد استيقظ..

قام وجهّز نفسه بالكامل، ثم توجّه إلى غرفة أبيه فوجده يتلو أوراده بعد أن فرغ من صلاة الصبح.. ثمّ جاءت الوالدة بالقهوة وبعض الكسرة بقي هو مع أبيه بينما ذهبت هي تحضر متاع ابنها، وقال أحمد لولده :

- أدعو الله لك بالحفظ يا ولدي.. ابعث لنا تطمئننا عليك وستأتيك إن شاء الله من حين إلى حين حوالات مالية قدر جهدنا لتأخذ بعض ما تعين به نفسك...

لقد قرب وقت الذهاب.. قام حميد وقام معه أبوه.. ورافقتهما الأم إلى الباب ثم ضمت ابنها ضمّة حنان قوية والدموع تنهمر من عينيها.. وصوتها حزين باك :

- يحفظك الله يا ولدي.. يحفظك الله...

شبحان يسيران في ضباب المطر الهاطل على البلدة، تتحرك رحى الرعب ثانية في صدر الأم، وتتدفق هواجس السوء إلى ذهنها..

«في صباح مثل هذا يأتوني به جسدا تضمّه الأرض لا أنا..»

صوره في الداخل ووسام معلّق بغرفته..

ولدك رجل عظيم يا سيّدتي.. لقد سقط في ميدان الشرف...

السماء تمطر بجنون والشجر والحجر مستسلم تحتها.. بعد قرابة ساعة رجع الوالد وحده شبحا يتسلل من خلال الضباب.. لقد ذهب والسماء تمطر ورجع والسماء تمطر، أما هو فقد ذهب والسماء تمطر فمتى سيعود ؟؟؟؟؟؟؟

رحلة في الظلام

يطول حديث جدتي معي في أغلب الأحيان بعد كل حادثة أو مشكلة، فتضرب المثل وتحكي لي القصة للعبرة والاعتبار.

- ماذا ترك لنا الأولون لنقوله يا بني؟

ثم تتنهد طويلا وتستطرد قائلة :

- نحن في أيام آخر الزمان وكل هذه الأحداث التي نعيشها اليوم،نصّوا عليها كما وقعت وكأنهم عاشوها بأنفسهم، أنتم تعلمتم في المدارس وقرأتم الكتب واستمعتم إلى الراديو وشاهدتم التلفزيون،كل هذا يا بني لم نره من قبل في حياتنا، لم نتعلم ولم نقرأ ولم نستمع ولم نشاهد،لكننا عرفنا الحياة وحقيقتها وفهمناها أكثر منكم، وكما يقول المثل عندنا : (أن يكون ابني فاهما ولا جعله الله متعلّما).

وذات ضحى لأحد أيام الصيف جلست معها في حوش البيت استمع إلى حديثها واستمتع ببقايا اللهجة القديمة المهدّدة بالانقراض في صوتها كمستمتع بتحفة أثرية نادرة، ثم أسألها عن بعض الأمور وأستذكرها بعض ما قصته في أحاديثها مع جلسائها من أهل البيت أو من زوّارها حين كنت غرّا غير آبه بتلك التجارب والحكم، ماضيا في لعبي ومحتفظا ببقية من تلك الأحاديث التي تسللت قسرا إلى ذاكرتي. وحين أصبّ لها الشاي تقول :

- لا أريد أن أكثر منه يا بني.

ومع الحديث تنسى جدتي وتشرب الكأس الأخرى.

- كلي يا جدّتي من الكوكاو[1]..

- آه يا بنيّ لا أريد أن أكثر منه فإنّه يجعلني أعطش كثيرا، ونحن كما ترى في هذا الصيف والحرارة تشوي الجلود وتجفّ لها الحلوق اللحظة بعد اللحظة، منذ قرابة الثلاثين عاما لم يجئنا صيف مثله، ولا أريد أن أثقل على نفسي وأنت كما ترى يا بنيّ قد كبرت، وأجمل شيء في الصيف الماء وكما يقول القائل : (نوار الصيف ماء).

أعطيتها كأسا أخرى، ثم جئتها بقنينة الماء لتشرب حين تريد ذلك، كنت أعلم أنها ستجهد كثيرا وهي تسترجع ذكرياتها وتروي لي.

[1] الكوكاو : الفول السوداني.

قالت جدّتي : إنّ الإكثار من تناول الشاي مضرّ بصحة الإنسان، خاصة إذا كان على الطوى وتذكر أنها في ريعان شبابها رحلت في أهلها إلى بلاد الظهرة (الشمال) وقد كان أهل جدتي يكثرون من شرب الشاي فقال لهم أهل تلك المنطقة التي حطوا الرحال عندها : (إن الشاي الأخضر قد تسبّب لنا في قتل ثلاثة أنفار) ويذكرون أنّ بعضهم قام بتجربة في ذلك قارنوا فيها بين الشاي الأخضر والشاي الأحمر... وكان ذلك على كبد شاة، صبّوا قليلا من كل منهما على الكبد ؛ فأمّا الشاي الأحمر فإنه لم يترك أيّ أثر، وأمّا الشاي الأخضر فقد خلّف بقعة محفورة في الكبد - اللهمّ عافنا

- قارب الوقت ثلثي الساعة قبل منتصف النهار، كانت الشمس تزحف في بطء وشعاع منها حارق يصبّ لهيبه على الأرض، علا لغط إخوتي الصغار ومعهم أبناء عمومتي وقد قفلوا من السوق حاملين بعض الحوائج إلى البيت، ثمّ اجتمعوا تحت ظل الحائط الجنوبي. وبقدر ما كان مرحهم يشعر جدتي بالاستمرار ويسرّ قلبها ويقرّ عينها ويثلج صدرها، كان كذلك يملأ رأسها وجعا ضجيجهم، أو هكذا كانت تقول جدّتي.

كانت جدّتي ترى أنّ أحداث هذا الزمن من أشراط الساعة، وتورد في ذلك أحاديث كثيرة للأولين في إرهاصات فناء الكون من خلال تحوّلات اجتماعية معيّنة.

قلت لجدّتي لنذهب إلى الغرفة ويؤتى لنا بتمر ولبن ونواصل حديثنا حتّى يلحق الباقون من أفراد العائلة ويحضر الغداء، وجلسنا نتحدّث. وحكت لي :

«كان هناك رجل صالح ـ وتعتقد أنه من الصحابة – قال يوما لزوجته :

– أشعلي لي شمعة كي أغتسل على ضوئها.

فقالت له وقد كانت مشغولة :

– اغتسل ولو من دونها...

فقال :

– ولكن الظلام...

وردّت مازحة على أنه خائف من الظلام :

– ها..ها.. خذه يا ظلام...

وفجأة وجد الرجل نفسه في مكان آخر ليس في بيته ولا مع زوجته (وتقول جدّتي : إنّ عفريتا من الجنّ يدعى ـ ظلاما – لمّا سمع الأمر نفّذه.)

«ومازالت دهشة الرجل من غرابة وجوده لم تنته فإذا به يرى رجلا حاملا على كتفه نخلة كبيرة فاحتار لقوّة

الرجل وقدرته على حمل هذه النخلة،و لكنّه لم ينبس ببنت شفة ».

واصل طريقه. ثم رأى كلبة حبلى وهي صامتة بينما جراؤها في بطنها تتنابح .. ما أغرب هذا ! ولكنه لم ينبس بشيء و استمرّ في السير و الغرائب لا تزال تتوالى...

رأى حصانين أحدهما بمكان قفر لا يحيط به كلأ أو ماء ولكنّه بدين يقف بشموخ،مستريحا في مراحه.. بينما الآخر في مكان مكسوّ عشبا و به كلأ وماء لكنّه نحيف هزيل الهيكل شاحب الصورة .

وبعد مدّة من السير وجد ثلاثة آبار ؛ اثنتان بهما ماء جمّ وتتوسّطهما ثالثة ليس بها ماء واللتان بهما ماء يمدّان بعضهما ولا يصل الخالية ماء من ذلك شيء.

ثم انتهى مسيره بلقاء رجل ـ وتقول إنه سيدنا الخضر ـ سأل الرجل عن حاله، فأخبره بما كان من شأنه، ثم تساءل لديه عن هذه الأرض الغريبة، فقال سيدنا الخضر :

- إنها أرض الجنّ...

ثم جعل يستفتيه فيما رآه في مسيره فقال :

- عجبت لرجل يحمل نخلة في ضخامة تعجز عن حملها الدواب القوية.

فقال سيدنا الخضر :

– قي آخر الزمان سترى ما تستغربه العيون،وتحتار له الألباب، ومن حاول استفهام ذلك فسيلاقي ما لا تشتهيه نفسه (من تدخّل فيما لا يعنيه سمع ما لا يرضيه)

وقال أيضا :

– رأيت كلبة حبلى تنبح في بطنها جراؤها.

– ذلك ما سيصبح عليه الناس في آخر الزمن ؛ الكبار يعيشون في صمت وسيلحق الأذى بالناس من الصغار وتكون الكلمة فيه للسفهاء...

ثم أخبره عن شأن الحصانين ؛ مكتنز في أرض قحط، وأعجف في أرض خضار.

– هذا أيضا حالهم زمانذاك ؛ فقير متعفّف مليء قلبه بالثقة في ربه وقانع بقدره، وغني متلهف لا يكفيه شيء ولا يبدو عليه أثر النعمة.

– وما بال الآبار الثلاثة ؟

– جاران موسران بينهما جار معدم يتعاطيان رياء ومفاخرة وجارهم المعدم لا ينال شيئا.

ثم أخذ سيدنا الخضر الرجل إلى ملك الجانّ حيث طلب العودة إلى بلاده، فبحثوا عمن جاء به فإذا هو (ظلام)، وأمره بإعادته، وحُذّر الرجل من قراءة القرآن إلى أن يوصله

الجنّي، وبعد مرحلة من السير نسي الرجل وقرأ فاحترق ظلام فسقط المحمول في عرض البحر.

وفي هذه اللحظة قفزت إلى ذهني أحداث أوديسة هوميروس ويستحيل الرجل إلى عوليس أوديسة الظلام. لكنّ جدّتي قالت :

- وكانت سحابة تصّاعد من البحر فحملت الرجل ومصادفة أو قدرا أمطرت في بلده وعاد إلى أهله !!

بدت جدتي وكأنها سفينة متقنة الصناعة تمخر بحرا طويلا من الذكريات الممتزجة بالخيال، تصطدم بأمواجه فيجيء صوتها صافٍ طافٍ على أشياء كثيرة معتمة، وأجدني متسائلا حول الذي يقع حولي، ما عساها تفعل هذه الشمس وهذا الظل والماء والشاي وهذه البقعة من العالم؟ ثم كأني بالوجود ينجو بنفسه من قيود المنطقية و الميكانيكية ويتركز كله في نقطة واحدة خارج حدود الزمان والمكان ويصير المرء حالة أو فكرة يمكن أن ترى كل شيء، وتحسّ بكل شيء. ثمّ أحسست أنّ الدنيا أظلمت فجأة وأحسستني أنا نفسي أتجرّد من أشياء كثيرة وأصبحت كشيء معلق بين السماء والأرض بمعزل عن حقيقة الأشياء، ومن حولي صرخات العدم عديمة المعنى. الظلام مستتب لكنّي رغم ذلك أرى بعض الحقائق بوضوح شديد...

كنت قد ذهبت في هذه الأفكار بعيدا جدّا إلى أن جاء صوت متناه كدوائر الماء إلى أذني جعل لي شيئا من الانشغال وبدأت علاقتي بذلك العالم البعيد تتموّج في شيء من الضبابية والوضوح ، والصوت قد أخذ يتركزّ شيئا فشيئا في ذهني، ثم ليتحدّد أخيرا بوضوح فإذا هو شخير جدتي.

صورة من الحياة

المطر ينزل منذ الساعات الأولى من الليل، لا شكّ أنّ الطريق موحلة الآن، خرجت من البيت حوالي الساعة السادسة والنصف قاصدا محطّة السيّارات.

تستقبلني على امتداد الشوارع البيوت ذات اللون الرّمادي الشاحب في وسط الجوّ المعتّم ذاك. وفي أحيان متباعدة يظهر شبح ضئيل لإنسان ما في الشارع البعيد المقابل. بدأت أحث السير من شدّة البرد والمطر، وفي منتصف الطريق أفاجأ بعارض قويّ يضطرّني إلى اللجوء إلى أفنية المحال التجارية المتواجدة حذاء الطريق الرئيسة للمدينة. وقفت حتّى يهدأ الوابل قليلا. كان الجوّ يعبق برائحة الأرض التي تستقبل الغيث بعد قحط، وأنا على هذه الحال تتناهى إلى أذني همسات متقطّعة ينتابها الوهن. ولفّت وجهي يمنة ويسرة ، وقلّبت بصري ألتمس مصدر الصوت ذاك، لمحت شبحا إنسانيا ليس ببعيد عنّي قاعدا القرفصاء.

تقدّمت بضع أقدام كأنّي أمشي على مساحة شائكة.. ثمّ تأكّد لي ملمح امرأة في ثياب خلقة وحولها صبيان أيضا في ثياب مهلهلة. تقدّمت أيضا.. وتزداد الرؤية وضوحا ولا أدري أيّ شيء نزل عليّ حينذاك وجعلني أتسمّر مكاني، نعم امرأة قدّرت أنّها في الثلاثين أو تزيد قليلا، ورغم شحوبها والدمع المنهمر على خديّها ما تزال تحتفظ ببقية حسن تتراءى من خلال الغلالة المعتمة التي شكّلها البؤس على مرآها.

تشجّعت وتقدّمت...

- صباح الخير.. وقعدت نصف قعدة.

وترفع رأسها وكذا جفنها الذابل ، ولا تنبس بكلمة.

- أأنت هنا طوال الليل؟

مرّة أخرى ترفع رأسها وتخفضه.. وأحسست كأنّها تقول لي : لا طول الليل هذا بل ليال وليال...

سألتها مرّة أخرى :

- لست إذن من أهل هذه البلدة؟

وتصمت مرّة أخرى.

- أين زوجك؟

مرّة أخرى يا إلهي تصمت.. وكدت أيأس حتى جاء صوتها أخيرا مجهشا هو إلى البكاء أقرب :

– مات أبو ولديّ هذين منذ تسعة أشهر، اليد التي كانت تحمينا وتطعمنا وتكسونا رحلت إلى الأبد ودخلنا نحن رحلة العذاب هذه.

صمت برهة ثم قلت :

– وأهله؟..

قالت في لهجة تحسّر وأسف :

– أهله.. أهلي.. ماذا أيضا؟

لاحقتها بالسؤال :

– هناك مشاكل قديمة إذن؟

ولم ترد.. وأدركت أنّ سؤالا كهذا لا يسأل في زمان أو مكان كهذا، أو حال مثل هذه.

وقلت كأنّي أعتذر :

– ألا يمكن أن تتصلي بأحد المساجد وتجمع لك بعض التبرعات.. وربّما ينظر لك في بيت أو أيّ حلّ؟ لا شكّ أنّ فاعلي الخير لم يعدموا...

ولم تنقطع الدموع من عينيها.. ووجهها ينكمش كأنّها تستطعم حموضة شديدة.. شفتاها مطبقتان كأنّ ينبوع الكلام فيهما قد نضب مع نضوب الأمل في حياة هذه المسكينة...

وأدركت أنّ الأمر يتطلب منّي القيام بأيّ عمل عاجل يمكنني عمله ولو بسيطا.. قمت ومددت يدي إلى جيبي وأخرجت لها بضع أوراق نقدية أعطيتها إيّاها قائلا :

- أيتها الأخت هذا ما بوسع العبد الضعيف الذي أمامك أن يفعل.. وأدعو الله أن ينظر إليك بعين العطف ويرزقك من حيث لا تحتسبين.

وسمعت صوتها يصفو هذه المرّة تكاد تنتابه نغمة مرح :

- شكر الله مسعاك وأرضى عنك والديك.

سكتت قليلا،ثم أردفت :

- أنت على سفر ، طريق السلامة...

المطر الآن ليس وابلا.. ولكنّه رذاذ.. سرت بادئ الأمر مثقل الخطو وصدري يفور بقلق حادّ.. فكّرت فيما فعلت ما هو إلا سحابة صيف.. احترت: من ألوم؟.. وعلى من أحقد ؟.. ما أنا إلا من هذا الجسم المصاب في بعض خلاياه.. ممكن أن أصاب أنا أيضا أو لا أصاب.. كلّ هذا محتمل.. نتألم لآلام بعضنا.. هذا ممكن أيضا.. ولكن ليس هذا كلّ شيء...

وفجأة رفعت بصري وإذا بالناس يتسابقون إلى ركوب السيّارات، فسارعت أنا أيضا كي أجد لي مكانا.

أوسكـــار

اسمهـا : سميحة

اسمـه : أحمـد

جمعتهما ظروف ما في الحياة وقرابة بعيدة.. وفي داخل كلّ واحد منهما ينمو شيء ما ومن المؤكّد أنّهما على طرفي نقيض...

سميحة تقول إنّ أهلها من الشمال.

نعم، يبدو ذلك واضحا عليها وجه غضّ ريّان، وشباب متفتّح ومتدفّق. لكنّها تشعر أنها من أهل الجنوب وهي سعيدة لكونها من هؤلاء الناس الطيبين البسطاء.

أمّا أحمد فهو جنوب بكامله، جبينه عريض كالفيافي، وشفتاه مطبقتان في حزم على الدوام، عيناه غائرتان تذكّران برحيل القوافل...

تتطاير خصلات شعر سميحة كسرب القطا،وينمو في داخلها إحساس بأنّهما سيظلان معا مهما كانت الظروف والأحوال.

أمّا أحمد فقد كان يرى نفسه كأيّ منطقة من الصحراء ؛ ينبت فيها الكلأ فيحطّ البدو الرحال ثمّ تقفر منهم.. وهكذا إلى الأبد نبات فإقفار...

من المؤكّد أنها لن تفكر في هذا أبدا.

وفي ليلة هادئة طرقت عليه باب غرفته ...

- ألمّ خيال من (سميحة) طارق[1]
- كيف أتيت؟
- أمي في الداخل في زيارة عائلية.. ألا أدخل؟
- بلى.. سأحضر لك شيئا تشربينه...

وتقول سميحة :

- لا داعي فوقتي قصير.
- ما الأمر إذن؟
- أرجوك تفهّم كلامي جيّدا.. ولا تتسرّع...
- أنت تشقين على نفسك كثيرا...

[1] أصله صدر بيت لجميل بن معمر يقول فيه :
ألمّ خيال من بثينة طارق على النأي مشتاق إلي وشائق.

– يجب أن تكون واقعيا يا أحمد، أنا أعلم أننا سنبدأ من الصفر، لذلك سنشعر طول حياتنا أنّنا نحن اللذين صنعنا آمالنا ومصائرنا بأيدينا.

– ليس الأمر كما تتصورين.

– أفصح إذن...

لقد حاولت معه من قبل في حوارات مارثونية دون جدوى، هي متفائلة وهو عنيد اصطدمت بجبل يأسه، كانت الدموع تنضح بهدوء من مقلتيها حين قال :

– بيني وبينك مسافة من الظروف لا تقطع، وحاجز من الفوارق لا يكسر...

– ماذا تعني؟

– إننا مختلفان تماما ولا يمكننا بناء حياة موفّقة...

– كيف ذلك؟

– أنت اجتماعية.. متفائلة ومقبلة على الحياة بصفة طبيعية.. أما أنا فإنسان منطو على نفسه، وبركان حزن خامد.. أنت فراشة ترقص بين أزهار التفاؤل وورود الأمل.. وأنا بومة تسعد بالعويل بين أطلال الفكر.. وخفّاش يحيا في ليل الغموض والتناقض.. أنت ينبوع الشباب المتدفق وأنا البدوي الذي لا يعرف استقرارا، راحلته على أهبة الاستعداد لتغزو وتغير وتفتح بيداء بعدها بيد.

- قالت في حيرة وشبه يأس :

- ما هذا ؟ ما الذي حدث لك، ماذا تقول؟

- اسمعي أرجوك...

ثمّ قام إلى الخزانة وأخرج منها زجاجة عطر أثير لديه مكتوب عليها (أوسكار)، وقال :

- خذي هذه واحتفظي بها ما استطعت...

ولدي يحيى

- «يلعب الكرة مع الصبيان...»

تجيب أمّك كعاشقة خاب أملها...

إجابة عن سؤالي حين وقفت في صحن البيت كأعرابي يمشط البيداء بعينيه بحثا عن راحلته :

- أين يحيى؟

حين يبزغ الفجر أذكرك إيقاعا على سجع الحمام، أراك شمسا تهمّ بالإشراق فأسوق الآمال جيشا فاتحا.. وتدين لي الآفاق بالولاء.. أراك صبيا ينتعش في الضحى يغازل الكرة بقدميه فتتراءى لي لاعبا أعشقه حتّى الموت...

وحين تغرب الشمس أراك مستقبلا غامضا فيسكنني القلق.. وحين يكتمل البدر أخالك تركتنا إلى رحلة فضائية...

أمّك تغار من الكرة، وأقول لها :

- «لو أخذته منك فتاة جميلة، ما أنت فاعلة يا أم يحيى»؟!

تجيب بخيبة العاشقة :

- « لتأخذه عنّي لقد مللت هذا الصبي وتلك الكرة... »

وأحملك بين ذراعيّ شوقا و عشقا، وأغنّي :

أنت الهديل.. أنت الغناء

أنت على مشارف الفجر دعاء..

تتعلل أمّك :

- « كيف لإنسان يعاني ضيق التنفّس يلعب الكرة في هذا الطقس والغبار يملأ الشوارع ؟!»

ومن عشقي لك أبتسم فقط... وتكون جيوش القلق قد احتلت كلّ بقعة من بقاع روحي...

الملعب البلدي الفسيح يموج باللاعبين والمدرجات ملأى بالمتفرّجين من مشجعي كرة القدم.. الفريق المحلّي سيقابل إحدى الفرق من البطولة الوطنية...

يحي وبقية الصبية المشاغبين يتسلّقون سور الملعب، ومن حين إلى آخر يتعرّضون لبعض المطاردات من المنظمين...

يسقط يحي من على سور الملعب فيتعرّض قدمه إلى وعكة في الكاحل، يكتم أمره عن أهل البيت دفعا للوم والعتاب...

تتعاقب الأيّام ويزداد الألم حتّى ليكاد يعجز عن الحركة وأكتشف أمره فأعرض حالته على الطبيب، يسلمني رسالة آمرا بنقله في أقرب وقت إلى طبيب في إحدى مدن الشمال...

– لابد من إجراء عملية... (وفي لابدّ خوف ورجاء، ويأس وأمل).

ويجيء موعد العملية...

التحاليل تقلل من نسبة النجاح...

الطبيب يخشى ذلك...

ولكنّ العملية قد أجريت...

رواق طويل من الانتظار، تتحرك القدمان ببطء، يزحف قارب الرجاء يباغته شلاّل الرؤية على نافذة رواق المستشفى، كان هناك صبية يلعبون الكرة في الحديقة المجاورة.

... إذن، ستطارده كلّ وسائل الضغط على الذاكرة، ستعذبه كلّ كرة في الشارع أو البيت، ستهزّ وجدانه كلّ ركلة صبي تمرّ أمام ناظره، سيوقظ حنينه وشوقه كلّ صرخة شقاوة يمتلئ بها الوجود...

وفي البيت كرة، ودمعة، وحمامة... وفي شوارع الذاكرة لعب، وشقاوة.

وصول يد لطيفة إلى كتفه في هذه اللحظة كان أشبه بارتطام جسم سماوي بأرض جفّت ينابيع آمالها، تذكرّ في لحظة خاطفة دون عناء للذاكرة قصّة غريبة عن عالم الشفقة البشرية، قصّة نهاية شيء ليس إنسانا ولاحيوانا... في صيف 99 حين كان اهتمام العالم كلّه منصبّا على رؤية الكسوف المهمّ فلكيا والذي كان وراء رواج تجارات معينة أيضا، وكانت سذاجة البشرية كلّها تتوجّس خيفة من خرافة نهاية العالم لتكشف مدى رهبة الإنسان الفطرية من العالم العلوي... لكنّه اهتمّ بما لم يهتمّ به العالم، رحلة ذلك الكسوف في ذلك اليوم العالمي كانت هي المهمّة بالنسبة إليه، هي الجانب المأساوي/الجمالي للحدث، تبدأ الرحلة - رحلة الكسوف - من نقطة في جنوب اسكتلندا في ولادة صامتة رهيبة كما يولد أي شيء عظيم، ثمّ ساعات طويلة من تصفيق الجماهير العالمية الساذجة، ثمّ يتركهم وهالتهم الضوئية والفضولية... ليبقى وحيدا في النهاية في خليج البنغال بالهند.. وحيدا تماما كأيّ شيء عظيم في النهاية... كنهاية راهب بوذي !!!

تحول الارتطام إلى صوت ناعم الآن وهو يتسرّب إلى أذنيه كنسيم بارد هامس :

- ما أجمل مشهد صبية يلعبون الكرة !!!

ودونما انتظار أضاف الصوت الناعم وهو يزداد نعومة وأملا :

– بعد ستة أشهر يمكن أن ينضمّ (يحيى) إلى هذا الفريق وتسعد بركلاته الرشيقة...

وصفع قلبه صفعة قوية (يا لقلبي اليائس...).

إنّ ولده لا يزال حيّا، كيف ذهبت خواطره شرّ هذا المذهب، (نعم.. نعم سأشتري كرة جميلة تكون هدية بمناسبة شفائه...)

وبعد ستة أشهر وفي قاعة العروض الثقافية للبلدة، وقف شخص ذو هيبة على منصة الشعراء وتكلّم في صوت متهدّج :

– اسمحوا لي أيّها السادة أن أقرأ عليكم أفضل قصيدة رثاء هي أفضل ما قرأت في رثاء الأولاد حسب رأيي، والقصيدة بعنوان (ولدي يحيى) وهي لصديق عمري الذي غرق صوته في حزنه فكتب بصمته القصيدة الأجمل بعد ذلك...

لا يدري كم عدد الحاضرين الذين بكوا والذين حزنوا والذين وقفوا على الجانب الفنّي للنّص الشعري والسعداء الذين لزموا الحياد في هذا وذاك... في قصيدة مثل هذه يمكن أن يكون الشاعر هو آخر اهتمامات المتلقي.

سحب بيضاء تتحرك في دوائر رخوية ووقع لمطر لم ينزل، يموج الرواق بحركة السحب البيضاء الحيادية.. يصل مدّ الحركة الدائرية الرخوية ويصطدم بسؤاله الذي لم يطرحه فيمطر جوابا ملتفا بعباءة الحياد :

- بعد أربع وعشرين ساعة تظهر النتيجة.

البحث عن الأبوة...

كان يبدو كعاشق من التاريخ إذا أنت نظرت إلى قامته المعتدلة ومشيته الرزينة، ولكنّك إذا نظرت إلى وجهه ذي اللحية المشوبة بشيب قليل بدا لك كمحارب أبلى بلاء حسنا قد أهدته المحن كهولة نبوية...

ولكن إن أنت تخلّيت عن ذلك كلّه رأيته شخصا يستحقّ العطف والشفقة، لا يملّ من تمشيط الطرقات في المدينة القديمة وكأنه ينشد لقاءات دافئة...

يجلس إلى مقهى (البرازيل) يشرب قهوة، تراه يقرأ جريدة (الخبر) وأنت قد ظننت في نفسك أنه يقرأ إحدى الصحف الصادرة باللغة الفرنسية.

وتفاجأ جدّا حين تراه يتردد - كلما حلّت العاشرة - على ابتدائية في الحي القديم، وكذلك يحدث الأمر ذاته كلما حلت الثانية عشر، ثم تراه في اليوم الموالي أمام ابتدائية

في المدينة الجديدة، وفي اليوم الثالث أمام ابتدائية قريبة من السوق والمقهى الذي يجلس فيه غالبا...

وما كان يتردد على هذه المدارس عند الأمسيات عدا أمسية الخميس...

ترددت بين الأهالي إشاعة عن خطف الأطفال، حيث اختفى طفل يوم الاثنين مدة ساعتين بعد خروجه من المدرسة لكنه عاد أخيرا إلى أهله...

ورددت بعض النسوة أنّ الطفل أخذه ثلاثة رجال على متن سيارة بيضاء وذهبوا به بعيدا خارج المدينة.. وحين فتح أحدهم باب السيارة لحاجة ما قفز الطفل وتولى راكضا يتبع الطريق حتى أخذته سيارة أجرة عائدة من إحدى الضواحي نحو المدينة...

ويوم الثلاثاء اختفى طفل آخر مدة ثلاث ساعات ونصف بعد خروجه من المدرسة.. وروى بعض النسوة نقلا عن الجيران سماعا عن أم الولد : أن الولد اختطفه رجلان على متن سيارة بيضاء أيضا ساروا به مدة ثمّ أعادوه أمام باب المدرسة...

وغير هذا من الروايات والأحاديث التي تحتاج في مجملها إلى نظر، خاصة إذا علمت موقع ومحيط تلك المدارس

محل هذه الأحداث، ومع مرور الأيام ينتاب تلك الروايات اضطراب وزيادة وحذف.

لكن الرجل المعتدل القامة ذا اللحية المشوبة بقليل من الشيب قد اختفى يومي الثلاثاء والأربعاء، والأمر ليس واضحا فيما يخص يوم الاثنين... ولكنه ظهر مساء الخميس، وبقي حوالي ربع ساعة يتأمّل خروج الأولاد من المدرسة، ثم سار كعادته بخطواته الرزينة الثابتة حتى انتهى إلى المقهى وجلس يشرب قهوته دون أن يقرأ جريدة...

لم بكد يكمل الرشفات الأخيرة من الفنجان حتى توقفت سيارة الشرطة أمام المقهى ، نزل شرطيان وقادا الرجل إلى السيارة في هدوء دون قيد واتجهت مباشرة نحو المركز...

ويوم السبت حضر أحد المحامين وطلب لقاء المتهم...

دمعت عينا المحامي حين رأى زميل الدراسة القديم وراء القضبان، ولكنه سأله سؤالا واحدا فقط :

- أين كنت أيام الاثنين والثلاثاء والأربعاء...

فأجابه :

- كنت في المستشفى...

ذكرى من الصين

أذكر جيّدا أول لقاء بيننا...

ذات مساء على هامش مهرجان بكين بمسرح «ليبوان» بفندق «تشيهانمن» ببكين...

لم نطل كثيرا في بروتوكولات التعارف :

- اسمي : أمين

- اسمي : تشولين.. نادني تشو إذا أردت.. لا يهمّ.

نعم، لكن كان جلّ حديثك في البداية عن أوبرا بكين.. أذكر قبل ذلك كلمة منك قلتها كأنك لم تقصدي أن تقوليها :

- من المستحيل أن يكون الإنسان بحجم العالم، لكنّه ليس كذلك إن هو أراد أن يعرف العالم...

أنا جئت كي أشهد تربّصا رياضيا في مقاطعة «خنان» لكنّي لم أتعب نفسي في أن أفسّر سبب بقائي في بكين.

وقلت أنت :

– لو كنّا نفهم الحياة حقيقة ما أتعبنا أنفسنا في تبرير مواقفنا.. لأنه هكذا من طبيعة الحياة مجموعة مواقف متناقضة.. المهم أن نتقبلها على عفويتها ونفتح لها قلوبنا مثل تلك الزهور التي شاهدناها بمعرض تنسيق الأزهار بقاعة المعارض التابعة لمسرح بكين الوطني...

لم نتعب أنفسنا أيضا في أخذ صور أو كتابات للذكرى، وقلت :

– هل أخذنا صورا لأحلامنا طول حياتنا ؟

– بالتأكيد.. لا.

– هل كتبنا خترفات نومنا الجميل؟

– ولا فكّرنا في ذلك...

– لنكن حلما.. لنكن خترفة...

– موافق.. ولن أحاول تفسير ذلك.

وتضحكين ضحكة طويلة عذبة وتقولين في النهاية :

– «عندما تعود إلى أهلك احك كلّ ما تستطيع أن تحكيه عمّا رأيته في بلادنا إلا تشولين وما قالته لك لأنه لك وحدك». ثم وضعت ضمن متاعي شيئين لم أحاول أن أفسر معناهما أيضا :

– خريطة لجغرافي الصين الكبير «شوشياكه»

– ملعقتان من ملاعق الصين القديمة ...

سأحتفظ بهما ما حييت...

أصواتهم.. وصمتها !!

الرياح تعصف بشدّة والبرد زمهرير.. دوي الرعود يملأ الآفاق ولمعان البروق يحول وجه البسيطة إلى شظايا... والدرب إلى غرفة (جميلة) وعرة وخطرة...

جميلة في غرفتها، غرفتها كريشة في عنف الطبيعة، عينان شاردتان في آفاق بعيدة.. ليلة كليلة حرب.. صوت الرياح عواء حادّ يخترق النافذة...

نعم لقد كانت تركض منذ الصباح في تلك الدروب والخوف والحيرة يملآن قلبها، والصوت يلاحقها دون أن يحجبه عنها دوي الرعود أو الرياح العاوية :

«لو يعلم الأهالي طبيعة الحياة التي نعيشها هنا في الكهوف والمغارات لالتحقوا بنا جميعا.. لا لكونها أحسن من حياتهم وإنما لذلك الدافع الذي جعلنا نكابد هذه الظروف الصعبة.. إننا قوم سكنوا هنا منذ فجر التاريخ.. منذ أن أحسوا أنّ هذه الأرض ستظلّ استئجارا يتوارثه الغزاة إلى

آخر غروب في التاريخ، كلّ وسائل الإعلام في الدنيا تتحدث عنّا.. إننا الوباء الذي جاء من وراء الآفاق.. نحن الخفافيش التي لا تظهر إلا في الليل.. ولكنها ستخلق من الظلمة نورا... »

«كل المنظمات في العالم على اختلاف مشاربها تعقد اجتماعاتها الآن لدراسة وتحليل المشكلة.. مشكلة الخفافيش، لكنهم يعلمون تمام العلم أن الداء يستفحل أمره وسيقضي عليهم إن عاجلا أم آجلا.. لذلك نطمئنكم بدورنا أنّ هذا سيحدث قريبا... ».

دون جدوى يلاحقها الصوت، لا تستطيع منه خلاصا، يا للهول صوت آخر :

«تصلك رسالتي هذه وأنا أحلق في الأجواء قد تركت أرضا رأيت أنّ وجودي بها قد بات غير ضروري.. لقد رأيت بوضوح طوال المرحلة التي عشتها الشمس وهي تغيب تتمنّى أن لا تشرق ثانية، رأيت الورود تتفتح نادمة والقمر يختبئ مذعورا وراء الغمام.. رأيت بذور الموت توضع في كل شبر من أرض هذا الوطن... »

أنا لست هاربا من الموت أو الفقر أو أي شيء من ذلك، وإنما لأني رأيت كل شيء يضيق أمامي، ورأيت قواربي تستعد للإقلاع نحو ذلك الثقب المظلم داخل نفسي..

«خفت من تلك البذرة التي تتلوى داخل أضلعي مستعدة للانفلاق.. لقد خفت من موجة تلك الطاقة العنيفة وهي تمور بصدري.. نعم أنا هارب وخائف.. لكن في لحظة ما تحطمت جميع الأقنعة أمامي فانكشفت لي جميع الأوجه، اتضح لي أنّ كلّ الأسباب قد انقطعت بي لحطّ الرحال هنا فأسرجت راحلتي وشددت الرحال وأنا لا أعلم وجهتي... »

لا تزال الرياح تعوي.. لا تزال تضرب الشجر في الخارج.. لكنها تأبى أن تقتلع.. إنها تتمسك بالأرض تمسك الوليد بأمه.. نعم ستظلّ هكذا طوال فصل الشتاء.. لكنها ستزهر في الربيع وتتفتح براعمها وتخضرّ أغصانها.. ستنتصر على المطر والبرد والريح بل أنها ستحوّلهم جميعا طوع يدها وتثمر...

سمعت جميلة خشخشة فرفعت بصرها صوب النافذة فرأت آنية الزهور الفارغة تكاد تهوي على الأرضية.. فكرت في الورود التي ستقطفها في الربيع فانتفضت من مقعدها وسارعت لإنقاذ الآنية، ثمّ سوّت من مكانها.

الطبقات

لم يكن منظر الشمس رائقا إلى نفسك وأنت تجوب طرقات هذه المدينة على الساعة العاشرة صباحا في نهايات شهر (جويلية) وبدايات (أوت)، تستقبلك الشمس بكآبتها الأبدية مستلقية على الطرقات والساحات العامة وقباب البيوت ذات اللون الأبيض الشاحب،ما إن تبدأ الشمس تلفح شقّ وجهك الأيمن وأنت تتجه شرقا إلى السوق أو أحد المقاهي أو أيّ مكان تنحر على عتباته بضع ساعات بائسة من هذا الصيف القائظ حتى يهبّ أمامك ثلاثة صبية واقفين يعرضون عليك جريدة (الخبر) أو (الشروق)، تشتري واحدة أو ترفع رأسك أو كفيك معبرا عن شكرك أو عدم رغبتك، ثم تراهم يسارعون إلى الجهة المقابلة إلى شخص آخر أو إلى وسط الطريق يستوقفهم صاحب سيارة أو غيره..

وليس الأمر مقصورا على هؤلاء الصبية الثلاثة أو الأربعة أو أيّما يكون عددهم أو في هذه الطريق أو التي عن يمينها أو

عن شمالها ، بل العشرات أمثالهم يملأون الطرقات والأسواق والمراكز الإدارية...

وها أنت ذا تصحو من التفكير فيهم وقد عددت نفسك ذا ضمير حيّ إذ شغلت نفسك بهذه الفئة البائسة من المجتمع أو قل هي على مشارف البؤس، لقد أعياك التفكير في أسبابها وعوامل ظهورها المفاجئ في مدينتك البسيطة التي اشتهرت بالمحافظة وقلّة الحيلة، مدينتك التي لا يبيت فقيرها على جوع أو عري، ها هي ذي اليوم تلبس ثوبا غير الذي كانت ترتدي بالأمس، عليه بقع رثّة كهاته الثياب التي يرتديها هؤلاء الصبية وهم يلتفون حولك يدعون لك بالرزق ورضا الوالدين، وبعضهم يتعلق بثوبك فإما تعطيهم بعض الدنانير أو تدعو لهم بادئ الأمر برفق،ثم بعد ذلك في أحسن الأحوال بتوتر أعصاب.

والآن قد جرفك سيل الملل إلى مدخل مقهى (تيمڤاد) حيث العامل الذي لا يملّ سماع أغاني (الراي) طيلة النهار، وحيث يجلس أغلب الشبان المتعلّقين بكرة القدم ونجومها وبطولاتهم وأخبارهم وأخبارها ، وهناك منذ ثلاث سنوات كنت أجد صديقي عمّارا يجلس إليهم فقد كان رجلا ذا مرح كثير ونكتة حاضرة،وبديهة سريعة مرغوبا فيه في المجالس خاصة عندما يحتدم النقاش حول كرة القدم..كان

صديقي عمار مشجعا أصيلا للفريق الوطني والمحلي ولكنه ومنذ سنتين فترت همّته وذوت جذوة حماسه فلا يتحدّث عنهما إلا نادرا ،وعندما تسأله عن السبب يجيبك قائلا :

- تلك أقدام للخسارة وليست للعب الكرة...

وهو - على هذا - لا يزال وفيا لكأس رابطة الأبطال الأوربية يتابعها خبرا بخبر يحلل ويناقش وينقد وينتقد ويقترح، شجّع في البداية فريق (ريال مدريد) ثم لأسباب لا أعرفها عدل عنه إلى فريق (برشلونة) ،ولكنّي نسيت أن أقول لكم - أيها السادة - أنّ صديقي عمّارا هو رجل أسمر بالغ السمرة، متوسط القامة هو إلى القصر أميل، معقود الحاجبين، ضيق الجبين كثيف شعر الرأس، يعفو عن لحيته أحيانا إلى مدّة تبلغ الأسبوعين أو تزيد، يدخّن حتى تخاله لا يتوقّف ويتوقف حتى تخاله لا يدخّن، يشرب القهوة السوداء ويكثر من شربها ولكنه في المدّة الأخيرة صار يميل إلى الانفراد في الجلوس،وكلهم يلقون إليه التحية إذ هم يلجون المقهى ويرد عليهم برفعة خفيفة ليده مصحوبة بابتسامة فاترة...

هذا. وعندما أجيء المقهى يبادرني العامل بالكابتشينو التي يتقن تحضيرها، ثمّ يقول وهو يلوح بغمزات من جهة عمار :

- خلّيها على الله.. يا... (ويلتفت إليّ مبتسما)

كان مدخل المقهى مزدحما والحرارة مرتفعة وكلهم يطلب ماء باردا، وصوت الراي مرتفع والنقاشات محتدمة ودخان السيجار يشكل غمامة قاتمة داخل المقهى حيث تفاجأ جميع من هناك بصوت حاد يشقّ ضوضاءهم :

- آه.. يا عرب.. آه يا عربنا... :

والتفت كلّ من بالمقهى بل ووقف بعضهم يستطلع الأمر، وكان شبه مفاجأة أن يجدوا عمارا المرح هو الذي يقف ويصرخ بهذه الطريقة :

- يا العرب...

حوقل بعض الناس، واستغفر آخرون، وابتسم بقية قليلة منهم في ما يشبه الدهشة...

- إنّ رجلا مثلي يعيش في هذه البلدة منذ خمس وثلاثين سنة لا يملك سكنا خاصا به،منذ أربع سنوات وأنا ألقي إليهم الملف وراء الملف وسيدهم يوزع مائتي سكن على المطلقات والبرّانية وولد البلاد تدوسه الأقدام.. لماذا تعطون الخبزة للبراني يا أولاد الكلاب وعمار ولد فطيمة يعيش مسكين زوالي؟ يأخذ ثمانية آلاف دينار يعيّش بها عشرة أنفار وليس لديه سكن...

أيها السادة إنّ والدي لم تكن ظروفه سامحة ليلتحق بصفوف جيش التحرير وإلا كنت ممن تدرّ عليهم الدولة الأموال والمساكن والسيارات، لم يكن والدي مجاهدا ولا شهيدا ولكنه ابن أصل لم يخن بلاده ولم يبعها والله لم يكن خائنا وكان في استطاعته أن يفعل ويعيش كما يعيش (القومية) اليوم ويصرّف(اليورو)...

هل هذه البلاد ملك المجاهدين والشهداء وأبنائهم فقط؟! حتى (القومية) أصبحوا سادة هذه الأيام يعيشون بـ :(اليورو) وعمار ولد فطيمة يسّلف ثمن خبز أولاده...

هل كان عليّ أن أدفع بأحد إخوتي إلى الجبال كي يقتله الإرهاب وتقدّم لنا منح ضحايا الإرهاب؟ هل كان عليّ أنا أن أفعل ذلك لتعيش فطيمة وأولاد أولادها؟ أم هل كان عليّ أن أصعد إلى الجبل ثمّ أنزل منه تائبا لأحترم في هذا الوطن؟

إنّ الرجل الذي يحترم نفسه ولا يتدخل في شؤون غيره لا يعيش في هذا الوطن.. لم يكن ذنبي أن لا يجاهد أبي أو يموت شهيدا أو حتى عميلا للاستعمار، ما ذنبي إن لم يكن أحدنا ضحية من ضحايا الإرهاب حتى يثبت وطنيته؟، ولكني غنيت مع أطفال هذه البلدة في المدرسة والكشافة :

وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر...

وعند هذه النقطة صفق من في المقهى تصفيقا حارّا طويلا وهتفوا جميعا :

- يحيا عمّار...
- يحيا عمّار...
- يحيا عمّار...

ثم وقفوا جميعا أيضا وقد حملوا كراسيهم إلى الأعلى وعلت الضوضاء وكثر التصفيق والتصفير وأظلم مدخل المقهى وتجمّع المارّة في الخارج وكاد أن يعلو بعضهم بعضا واشتدّ الضغط والحرّ وامتزجت رائحة العرق بدخان السجائر وأضحى الأمر كالكابوس.. حتى دبّ نور رفيع من بين الشخوص الواقفة عند المدخل فأنزلت الكراسي بهدوء وجلس الواقفون، وتبدّدت الغمامة القاتمة وبقي فقط شبح رجل دافئا قامته في كرسي أمام طاولة لم تعد تحمل إلا بقية كأس قهوة سوداء وعلبة سجائر ذات لون أبيض وأخضر مكتوب في وسطها (أفراز)، وتستقرّ في الأسماع أصداء لأغنية متسللة من جانب آلة المقهى :

اصبر يا قلبي اصبرْ
وأنا ما عندي ازهــر

أبوك : .. الدايم الله...

ما أسوأ أن يبدأ الصباح بعويل ونواح، ذلكم ما بادر أسماع الناس وهم في دورهم يشربون شاي الصباح، خرج الرجال إلى شوارع الحي عن الأمر يتساءلون، ووقفت النسوة عند مداخل البيوت يتنصتن لأقوال المارّة علّهن يعرفن عن الأمر شيئا.. وجاءت أصوات متباعدة :

- الدايم الله في ملكه...هذا الحاج محمد ولد العيد الله يرحمه...

- الدايم ربي.. ارتاح من عناء المرض...

- الدايم الله.. كل من عليها ليها...

وهرع بعض الرجال إلى بيت الميت حيث وجدوا بعض أولاده وأحفاده وبعض أصهاره وذوي قرابته، وجلس الناس تحت ظل حائط هناك وتحدّثوا عن مرض الرجل وموته، وقالوا إنه مات عند منتصف الليل في المستشفى ولم يخبر من شهد

الوفاة أهله إلا عند الصباح، ثم تساءل الناس عن موعد الدفن، وقال زوج ابنته الكبرى :

– إنّ ذلك سيتمّ مساء في مقبرة(الحاج البكري) هذا إذا حضر ابنه عبد الغني هذا النهار.

وسأل بعضهم :

– هل وصله الخبر؟

قال الصهر :

– لقد اتصلنا في الصباح الباكر بعلي ولد إبراهيم المحاسب هناك في حاسي مسعود وقال إنه سيذهب إليه قبل بدء عمله وربما يأتيان معا على متن سيارة ولد إبراهيم...

وردد بعضهم أيضا :

– من الأفضل تعجيل دفنه خاصة في هذا الحر فإكرام الميت دفنه...

نعم، عبد الغني هو الابن الأوسط من أبناء الحاج حمّة[1] ولد العيد، شاب في نحو السابعة والعشرين، ربع القامة، أسمر داكن السمرة مستدير الوجه غليظ الحاجبين ذو بنية مكتملة كثيف شعر الرأس أمرد الوجه إلا من شعيرات متفرقة على شاربه. يحظى أبكار الآباء وصغارهم ـ عادة – بالدلال المتدفق بينما يكون الابن الأوسط أكثرهم خدمة لأبويه وتقع على عاتقه مشقات كبيرة ومسؤوليات جمّة

[1] حمّة : محمد.

وقد يكون من أكثرهم عقوقا وأجلبهم للفتن والمشاكل أو ما يراه الآباء فتنا ومشاكل، لكنّ عبد الغني لم يكن من هذا النوع الأخير بل كان خدوما لوالده ملبيا لرغباته مستجيبا لطلباته لا يترك مشورته أبدا رغم أنه شاب سيء في حق نفسه بعض الشيء فهو كثير التدخين لا يتورع عن شرب الخمر أحيانا ،يسهر الليالي في لعب الدومينو والورق، لكنه كان على علاقة مميزة بوالده، مميزة عن بقية الأبناء، يطيعه أيّما طاعة ويستشيره في كل أمر صغر أم كبر، ومع أنه قد يدخل معه في نقاش حادّ لكنه في النهاية وقّاف عند ما يرضي والده فهو يعطي لهذا الرضا مكانة عالية في حياته بل يجعله سببا للسعادة والهناء فيها كما أنه مفتاح أبواب الرزق لها...

بعد أن فشل عبد الغني في الدراسة أصبح يركب الحمار الأشهب كل يوم وينحو غربي بيوت الحي طريقا إلى غوط أبيه ويقوم على نخلاته هناك يعلفها ويقصّص جريدها ،ووقت اللقاح يقوم بنفسه على لقاحها، وعند القطع يجني التمر مع ثلة من الشباب أصدقائه،وفي أيام الفراغ يزاول بعض الأعمال فيعطي نصيبا كبيرا من أجره لوالده، لكن وبعد ثلاث سنين رأى عبد الغني أنّ هذا الأمر ليس في صالح مستقبله خصوصا بعد ظاهرة صعود المياه الجوفية إلى

النخيل مما أدّى إلى فساد كثير منها.. وناقش عبد الغني الأمر مع والده عدّة مرّات عندما جاءته فرص العمل في العاصمة وكذلك السفر إلى ليبيا، كان الوالد يواجه كل الطلبات تلك بالرفض ويرد على عبد الغني منتهرا :

– ولمن تترك رزقك يا عبد الغني؟!

هذا. إلى أن تدخل علي ولد إبراهيم الذي كان قد فتح مكتب محاسبة في حاسي مسعود منذ سنوات وذلك عندما عرض على عبد الغني فرصة عمل في إحدى الشركات هناك،لكن عبد الغني آثر أن يناقش ولد إبراهيم الأمر مع والده مباشرة وفي النهاية رضخ الوالد إلى الواقع ووافق على مضض...

والآن صار لعبد الغني سنتان ونصف في حاسي مسعود مستقرا في عمله تاركا طيش الشباب مهتما بمستقبله، يعد لأمر زواجه الذي قرر أن يكون في الخريف القادم...

ولم يكن عبد الغني طيلة خدمته لوالده يتصوّر موته،وإذا راود شيء من ذلك باله فإنه يشعر بأن الكون سيهوي على عروشه، وستنضب ينابيع السعادة كلها، إنّ والده ورضاه يمثلان ركنا شديدا في حياته، فكيف إذا وصله خبر وفاة الوالد الكريم..؟!

علا الصراخ والعويل والنواح مجّددا في بيت الحاج حمّة ولد العيد وهذا - عادة - إيذان بعودة غائب من أبناء الميت، لقد حضر عبد الغني وما إن نزل من على سيارة علي ولد إبراهيم حتى ارتمى في أحضان أخيه الأكبر (العيد) وبكيا طويلا حتى بكى لبكائهما من شهد الواقعة...

ولّما قام قائم الظهيرة جيء بالجثمان من المستشفى فغسّل وكفّن ووضع في المسجد العتيق، وبعد صلاة الظهر ذكر عليه الرجال الوظيفة[1] والهيلالة[2] وفعلوا الأمر ذاته بعد صلاة العصر، وأخر الدفن إلى الساعة السادسة تفاديا للحر الشديد...

وانطلق الموكب من المسجد العتيق مارّا بالشارع المقابل لبيت الميت حيث وقفت نسوة من بناته وقريباته.. كانت هتافات الرجال تملأ الأفق :

- لا إله إلاّ اللّه.. محمد رسول اللّه...

تبادلت الأكتاف حمل النعش حتى وصل الموكب إلى مقبرة الحاج البكري وعند وصولهم وضعوا النعش في الرحبة المخصصة للصلاة في المقبرة وأديت صلاة الجنازة وبعدها انزوى الإمام مع جمهرة من الرجال إلى ركن ذي ظل في المقبرة، وانطلقوا في قراءة سورة (يس)، وحمل بقية الناس

[1] الوظيفة : ورد معروف لدى أتباع الطريقة التيجانية.
[2] الهيلالة : ذكر ألف مرة أو أكثر لا إله إلا الله.

النعش إلى القبر، وشدّ أربعة رجال أطراف إزار غطوا به فوهة القبر ليسقط الميت في ستر، وكلهم يردد :

- «اللّهم صلّ على سيدنا محمّد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق ناصر الحقّ بالحقّ والهادي إلى صراطك المستقيم وعلى آله حقّ قدره ومقداره العظيم»[1]

كل هذا وعبد الغني واقف تذرف عيناه لم يتقدم لرؤية عملية الإسقاط، ولم يهل التراب كما فعل بقية الأبناء، ولما فرغ الناس من الدفن غرس عسيبان أخضران في مرتفع التراب الذي كوم على القبر ثمّ رش التراب بالماء، وتباعد الناس حتى شكّلوا حلقة حول القبر مفتوحة من جهة القبلة حيث أقبل الإمام ومن معه حتى توقفوا على بعد خطوات من رأس القبر وقرأوا فاتحة الكتاب معقوبة بقوله تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ، لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتَ اَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ، لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الاكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمْ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ، يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِين، وَلَقَدْ

[1] هذه صيغة الصلاة على النبي المعروفة عند أتباع الطريقة التيجانية بصلاة الفاتحي.

كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الارْضَ يَرِثُهَا عِبَادِي الصَّالِحُون، إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عَابِدِينَ، وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، قُلِ انَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلَ اَنْتُمْ مُسْلِمُونَ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلَ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنَ ادْرِي أَقَرِيبٌ امْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ، إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنْ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَو، وَإِنَ اَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ الَى حِينٍ، قَلْ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ)[1]

وكانوا يتلونها بصيغة خالية من التلحين لكنها مؤثرة، مؤثرة جدّا، يمطون أصواتهم عند حروف المدّ ويفتحون أواخر الآي وصلا بما بعدها، حتّى وصلوا (وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون) فسكتة صغيرة بمقدار ردّ النفس وتلوا (محمد رسول اللّه والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم...) وحين ختموها تلوا الفاتحة مجددا وأعقبوها بالصلاة على النّبي خاتمين الأمر كله بـ : (سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله ربّ العالمين) ثمّ تعالت الأصوات :

- عظّم الله أجركم...

[1] الآيات من آخر سورة الأنبياء على رواية ورش عن نافع المدني.

- عظّم الله أجركم...

والتفت الناس إلى شهيق عبد الغني وثلاثة من أقرانه يقودونه، بدأ الناس في التعزية بينما يقول بعضهم :

- هيا إلى الحيّ يا جماعة...

- إلى الحيّ...

كان العربي ولد احميدة رجلا كريما حيث منح بيته الشاسع للعزاء وقد اجتمع الناس فيه بعد عودتهم من الدفن فوجدوا الماء البارد والشاي، وجلس أولاد الحاج حمّة ولد العيد على خطّ واحد وانضمّ إليهم أصهارهم، وجاء الناس فرادى وجماعات، الذين عزّوا والذين لم يعزّوا...

- عظّم الله أجركم...

- خلّى لكم دعوة الخير...

- البركة في روسكم...

كان وجه عبد الغني قد اختلطت سمرته بحمرة البكاء فكان خمريا ذا حزن جذّاب، يمدّ يده للمعزين في صمت..

بعد مدّة وبصورة مفاجئة انسلّ من خلال الزحام حيث لا ينتبه إليه أحد، وسلك دربا ضيقة في الحيّ واتجه غربا خلف البيوت وراح يخبّ السير عبر الرمال قرابة نصف الساعة، وكان النهار يحتضر والشمس قد غرقت في تفاصيل

غروبها ووصل عبد الغني إلى غوط أبيه ونزل إليه عبر الثنية الشرقية بخطوات متثاقلة حتى وصل البئر ووقف برهة ثم انصرف إلى مربط الحمار ووقف أيضا لحظات عنده، يعصر نفسه للبكاء دون جدوى، دمعة واحدة لم تنزل من عينيه ثم أخذ يجول طولا وعرضا بين النخيل، يتوقّف عند بعض النخلات كأنما يستجمع ذكريات معينة،ثم يمضي في جولاته حتى تكاثف الظلام داخل الغوط فاتجه صوب الثنية الغربية وصعد إلى أعلى ثمّ وقف متجّها نحو الغرب وقد ملأت الأفق حمرة داكنة، وامتلأ صدر عبد الغني برائحة الماء العفنة وهو يتأمّل الأشياء من حوله،رآها لم تتغيّر بقيت كما هي، الكون هو هو، الغروب والشفق، وصوت الصراصير والنخيل والماء العفن والبئر ومربط الحمار، كل شيء هو هو، النجوم المتسللة من ثوب الغسق والهلال الغارب في حياء، ثم انفرج وجه عبد الغني عن ابتسامة عريضة ما لبثت أن تحوّلت إلى ضحكة طويلة، وقهقهة جاوبتها أصداء في الوجود البعيد...

لا يزال الناس يتوافدون على أبناء الحاج حمّة يعزّونهم ويسألون عن عبد الغني، وأجاب بعض الناس :

- قبل زمن قليل كان هنا...

- ربما ذهب يتوضّأ أو يستحمّ...

- ربما ذهب ينام.. لقد كان متعبا جدّا...

على الحافّـة...

كان يعشـق العروبة ولا يبوح بعشقه لأحد.. وكان في غرفتـه الضيّقة صورة لمسجد القدس.

لا يقرأ الأخبار إلا نادرا حتّى ظننته يمقت السيـاسة وأخبـارها، وينفر من أهلها وأنصارها.. وقلت إنه رجل ذو هموم يحمل في قلبه أوجاع أمة، لكنّي ما وجدته كثير الخوض فيما يخصّ الأحداث الأخيرة...

كانت سقيفة بيتهم هي جامعتنا، وملتقى أفكارنا، ومصبّ مشاعرنا، يجلس الرفاق أول السهرة ثمّ يبقى ما بقي لنا وحدنا، تضمّنا جدران الغرفة الضيّقة في حنو أمّ ضاعت في آفاق الاغتراب.. وكثيرا ما يقودنا الحديث الهامس إلى حبّه الأوّل الذي ما عرف حبّا بعده وإن كان لا ينكر بعض حالات الإعجاب التي صادفته في الثانوية والجامعة...

إذا تحدّث عن حبّه الأول غرق في الهمس وكثرت نظراته

إلى صورة بيت المقدس.. وتنتابني مشاعر غريبة غالبا ما أحاول تناسيها وأسأله أحيانا إن كان قد كتب شعرا أو خواطر في حبّه؟

- نعم إليك في هذه الخواطر عن فلسطين :

«حبيبتي مريم كان اسمها ، أيّ وجدان كانت تملك القدس لحظة ميلادها ؟

نامت طفولتها تحت ظلال الزيتون.. هل تحب شجر التفاح؟

كل الذين عشقتهم عاشوا بعد الموت.. هل كنت متسامحا إلى هذا الحدّ ؟..

كم وضعت معالم العشق والموت على طرف ، وزرعت نفسي في الغابة المجاورة... »

أطلق تنهيدة طويلة ثم أسأله محاولا تغيير الموضوع :

- أتقرأ شعر نزار؟

ويجيب بنفس اللهجة الغارقة في الهمس :

- يبكيني درويش أحيانا...

وأصمت محوّلا نظراتي عن وجهه إلى تلك الخواطر والخربشات التي لا تدل على اهتمام صاحبها بأيّ نوع من التنظيم...

ثمّ يردف قائلا :

– أتعرف إنّه شاعر.. شاعر، أي كغصن زيتون.. أو نافورة.. أو...

وأرفع رأسي متضاحكا :

– أيّ نوع من التشبيه هذا ؟

ويقول أيضا :

– هل قرأت «مديح الظل العالي» أو سمعتها ؟

ويعود إليّ انشغالي بالصمت والهمس من حولي وأقول بلهجة هي أقرب إلى التنهد :

– تلك أرض أنجبت شعراء حقّا.. إنها أشياء كثيرة تصنع الشعر هنالك.. الاحتلال.. الطبيعة.. الزيتون.. القمح.. الليلك.. أي شيء.. حتّى قهوة المساء (وأبتسم).

ويواصل هامسا كأوتار الحلم :

– عندما كنت أدرس في السنة السابعة.. بكيت، ولكنّ أحدا لم يشعر بي في الصفّ لا الأستاذ ولا التلاميذ...

قلت :

– ولكن لماذا بكيت؟

– كانت قصيدة "يتيم وأمّ" لفدوى طوقان،أتعرف ما أبكاني فيها ؟

وأزاح سؤاله عن ذهني السذاجة العاطفية التي تبادرت إلي أول كلامه، وقلت :

– ما هو؟

قال : – قولها :

وبدت في البيض من أثوابهـا

من رأى إحدى حمامات الحرم؟

ثم رأيته ينظر إلى الصورة حتى بدا بريق ضعيف في عينيه، ثم رجع ينظر إليّ، وقال :

– عاودتني الحالة ذاتها في الصفّ النهائي في الثانوية، حين درسنا مرحلة المفاوضات في القضية الفلسطينية وبالذات حول (اتفاق غزّة وأريحا).. وضعت وجهي على كفيّ، وكدت أصرخ :

«لماذا لا يختارون المقاومة؟.. أو حتّى الرحيل عن بلادهم.. ليهجروها ويتركوها لهم...»

ثم هدأ نحيبه،وهمس :

– الموت أن تعيش مع وطن ميّت آلفا موته، أما الحياة هي أن تتعذّب بشوقه وذكراه ولو تركته في يد الآخرين جريحا...

منذ سنتين وهو يدرس في العاصمة.. وتأتيني رسائله أحيانا ،ونلتقي أيام العطل، نجلس في المقهى ضحى ومساء، وليلا نواصل السمر في البيت في السقيفة الضيّقة، وأحيانا

تأخذنا حمّى السير لنمشّط طرقات المدينة طولا وعرضا وفي الطريق يباغتنا مطر أو ريح أو مجنون أو شارب خمر، غير أنّ الصوت الهامس يحضر بقوّة حين يخبرني :

– التقيت مرّة بالأستاذ «وليد عبد الحيّ» لا شكّ أنك تعرفه.

– بالطبع أعرفه، وماذا أيضا ؟

– تعرّفت إلى بعض الطلبة الفلسطينيين وتعلّمت منهم الشيشة والواقعية...

وأضحك من طريقته في التعبير مع إدراكي الآن عمق ما يفكّر به ...

لم أعهده متذمّرا من طبيعة البلدة أو مجتمعها على غير عادة الشباب من جيلنا، بل كان يعجب بالمواقف البسيطة رغم ما فيها من سذاجة وأخطاء أحيانا.. ولكنّه قال هذه المرّة :

– ليت نهرا غامضا يقيم في هذه البلدة،أو غابة زيتون...

– أهذا شعر؟

– كلاّ...

ويضرب على كتفي في ضحكة عالية تتجلى فيها أصداء العبقرية والبساطة والعزم ...

- كيف هي أحوال العاصمة؟
- كعاصمة...
- ماذا عن مجتمعها ؟
- أتريد أن ترى نفسك أو تراني؟
- هل أحببت فتاة في الجامعة؟
- كلاّ...
- كلّ شيء بين يديك...
- وأنا لست بين يدي أيّ شيء

هذه الأيام تشهد الأرض المحتلّة تصعيدا لا نظير له ؛ قرى ومخيّمات وأرواح تسقط تحت دمار الآلة اليهودية.. وماذا بعد؟

نداءات.. وتنديدات..

دماء.. وتصريحات...

غناء.. وأشعار..

جداريات.. وملحمات...

آباء يبكون.. وأمهات..

وعلى الأرض احتلال وأزمة...

ولكنّ الصورة غطّت كلّ شيء ؛ صورة (محمد الدرّة)، لقد أصبح رمزا للمقاومة والصمود مع أنه قتل، وهذه هي

خلاصة التفكير والوجدان في بلادنا العربية كما أنّ الطفل أصبح رمزا لضحايا التوحّش بمنطق الإنسانيين العرب...

بعد أيام أعلنت مسابقات في الشعر، والقصّة، والرسم، الموضوع : محمد الدرّة.. المسابقة مفتوحة لكلّ عربي !!!

كان الطفل صغيرا مشاكسا يكره المدرسة، وفي لحظة لا يدري أحد إلاّ الله هل كان يريد فيها الموت أو الحياة؟ تحوّل إلى رمز نادر.. والرموز من صنع الأحياء دائما...

آه.. لقد انقطعت أخبار صديقي عنّي.. وأنتظر رسالة من العاصمة لم تصل...

التلفزيون يقول : إنّ الشارع العربي محموم بالمظاهرات والاحتجاجات أصبحت الكتابة على الجدران مباحة.. قال أحدهم في تعبير ساخر :

– صفقة بين (العرب) و(بني إسرائيل) ؛ يسمح للشعوب العربية أن تنفّس عمّا في دواخلها.. ولو كان في الظاهر معاداة (للسلام)...

مازلت أنتظر رسالة ولكنّها لمّا تأت بعد... الحديث حول الانتفاضة ومحمد الدرّة يملأ الشاشات والشوارع والمقاهي... أتابع الأخبار.. أتابعها إلى حدّ الغثيان...

ضاق صدري بالأخبار وبما وراء الأخبار وبالصمت والكلام...

ضاق صدري جدّا...
لم أعد أتابع الأخبار...
لم تأت أيّة رسالة.

عشـاء الميّت

طوى العلمي ورقة كبيرة ووضعها في جيب سترته الداخلي، لقد كتب الطباخ كلّ ما يلزم لإقامة هذا العشاء اليوم بعد صلاة العصر، وكان قد اتصل منذ صبيحة الوفاة بجمعية الحيّ لتجهيز ما يلزم من موائد و أطباق ومغارف و أواني ... وعليه الآن أن يحضر كذلك ما يلزم للأكل كلّه، لقد اتفق البارحة مع صاحب أحد المحلات المجاورة على أخذ كلّ ما يحتاج بشرط أن يؤجل دفع المبلغ إلى حين استلام أخته الأرملة حق التصرّف في أموال فقيدها التي جمّدت فور إعلان خبر وفاته للجهات الرسمية، و لا شكّ أنها أموال طائلة رغم أنّ المرض قد استنزف منها ما استنزف في الأشهر الأخيرة ...

وسار بخطواته المتثاقلة في هيئة لا تعكس نشاطا صباحيا من أيّ نوع كان، وولج سيّارته، ثمّ شغّل محركها وانتظره حتىّ يسخن، ثمّ خطر له أن يتساءل في ذهنه هذا

السؤال : لماذا يموت الإنسان؟ و بقي صامتا برهة لا ينوي على شيء .. ثمّ وجد نفسه يسخر من سؤاله بابتسامة جدّ ضعيفة : طبعا لا بدّ أن يموت ... لأنّ الله يريد ذلك، وكتبه على هذه البشرية البائسة، إنّ الحياة لا بدّ أن تتجدد، و لا بدّ أن تتخلّص من عدّة أشياء، بل لابدّ أن تتخلّص من كلّ شيء، ولكن بطريقة تدريجية، فصبرا إذن، حتى هذا اليوم المليء بالواجبات الغريبة سينتهي هذا اليوم، وستكون خاتمته، وخاتمة كلّ شيء يتعلّق به عشاء دسما يأكله القاصي والداني، وتذكر فجأة، ترى هل ذهب الشباب لإحضار اللحم الذي أوصى به الجزّار البارحة؟ وقرر أنّه سيتصل بهم بعد قليل ...

وعاد لسؤاله السابق : لماذا يموت الإنسان؟ ... ولكنه اضطر هذه المرة لتعديله بالشكل التالي : لماذا يقدّس الإنسان الموت لهذه الدرجة رغم أنّه يسلب منه أحبّ الناس إليه؟ ... ربما لكونه كذلك، وربما لأنّه نهاية محتومة و لا قدرة على دفعها كما يقنع الكثيرون أنفسهم بذلك، ولكنّ هذا لم يعد مجديا لديه الآن خاصة أمام أسئلة من نوع : لماذا الإنسان يحمّلنا بموته مسؤوليات كثيرة، كالحزن والأسف عليه، والبت في تركته، والوقوف إلى جانب مصابيه، بالإضافة إلى تقبّل شفقة الناس وتعازيهم المقيتة

... ولكنّ هذا العشاء رغم تكلفته سيضع حدّا لذلك كلّه، ويرغم الجميع على عدم التفكير في الرجوع، ويكفينا كلّ واحد منهم أعباء حضوره المختلفة من جلوس ووقت وشاي ومواعظ فارغة وقصص عن الموت تهرّأت وبليت من التكرار ولكنها لم تنته، ثمّ حرّك السيّارة، وانطلق يسير ببطء حتى انتحى جهة اليسار صوب المحلّ الذي سيأخذ من عنده المواد اللازمة، وفكّر في موقف ابن أخت الفقيد الذي عارض فكرة عشاء الميت من أصلها، و هو بالطبع موقف متوقع من هؤلاء المتدينين الجدد الذين وقفوا على خطّ المعارضة لكلّ عادة وتقليد، وأفضى الأمر بهذا الشاب المتحمّس إلى أن يحرّم على القائمين على هذا العشاء أن ينفقوا درهما عليه من مال الفقيد الذي هو حقّ ورثته، ومن المؤكّد أنهم لم يقيموا وزنا لموافقتهم حتّى تلك اللحظة، وفكّر أنّه قد تكون وجهة نظر هذا الشاب المتحمّس صائبة من وجهة نظر اقتصادية بحتة، وذلك بخلاف نظرتنا إلى الموضوع من زاوية العادة الاجتماعية وعلاقته بمكانة الراحل، و بأحوال ذويه النفسيّة، وقد كلفته أخته بأن يقوم بكلّ شيء، و أن لا يتوانى في بذل ما تجدر به مكانة فقيدها الذي هو أهل لأن تنفق في سبيل مكانته كلّ ما بقي من مال ...

واتفق هو و أخو الفقيد على أن يأتي بالخضار منذ الصباح الباكر، و سيسدد له المبلغ بعد أن تستسلم الأرملة حق التصرّف في أموال زوجها و أملاكه، و لكنّ السيّارة الآن قد وصلت إلى جانب المحل، و أوقفها قريبة من مدخل المحل حتى يسهل شحنها بالسلع، خرج من السيارة و اتجه نحو مؤخرتها ثمّ رفع بابها إلى أعلى، والتفت على تحيّة صاحب المحل، و هو يقول : جئت في الوقت المحدد، كنت أزمع الذهاب للتسوق، ولكنّي أوصيت بك الشباب، إذن ماذا تريد بالضبط؟ وسلّمه العلمي الورقة ...

أخذها صاحب المحلّ، ثمّ قال وهو يطالع ما فيها : الكسكس، والطما ... إذن اليوم عشاء الميّت .. هذا المسـ ... الزيت، والمشروبات و .... كيف أحوالهم هذا الصباح؟ وواصل مطالعة الورقة وهو يأمر الشباب بإحضار البضائع ثمّ حملها إلى السيارة، دخل أحد الزبائن، و لمح العلمي واقفا في أحد زوايا المحلّ تكاد تخفي قامته الفارعة صناديق أكياس الحليب، و ألقى إليه تصبيحة تليق بكونه من أهل الجنازة .. ثمّ دخل في مقترحات مع البائع في أمور عشاء الميّت، وردّد مرتين أمام العلمي : إذن اليوم عشاء الميّت؟ اليوم سيعشّى؟ ولكن العلمي ألف مثل هذه الملاحظات من أهل البلدة، والذين هم دائما على

استعداد تام في التبرع بمقترحات حول أي عمل ممكن أن يقدم عليه المرء مهما كان صواب ما تفعله، ومهما كانت الملابسات التي يجهلون خفاياها، لذلك قرر منذ مدّة أن لا يأخذها بعين الاعتبار، وكتأكيد لذلك قرر أن لا يبدي أي ملاحظة أو أي مقترح أمام أي تصرّف يحدث أمامه، بل إنه اقتنع أخيرا أنّه لا بد للإنسان شيء من الخسارة والفشل يلازم أعماله دائما، وبعد انصراف الزبون، خاطبه البائع مجددا : قالوا إنّ زوجته و ابنته في حالة تعب كبيرة ... وفكّر العلمي في أخته وفي فجيعتها بزوجها الذي كان بدوره كفرد من العائلة، هكذا كان يعامله أبوه الذي كان المرحوم بدوره يعامله كوالده.بل لا يتخطى مشورته ورضاه، ويقضي إجازة الصيف في بيته، بعد أن يترك العاصمة مقبلا على حر هذه البلدة بشوق وحنين ... يرحمه الله، و آه لتلك البنت المسكينة، لقد فقدت أدفأ حضن، و أحنّ صدر، وعلى كلّ يحسن بها أن تتزوج، علاجها الوحيد هو الزواج، أكثر النّساء المتزوجات يفقدن حوالي الثلثين من قدرة الذاكرة لديهنّ، وقد يكون ذلك بسبب السعادة الزوجية .. أمّا غير المتزوجات فهنّ مزرعة رهيبة وحقل خصيب للهموم والأحزان، وذاكراتهن أكثر اشتغالا بهذا الميدان، لذا يجب أن تفقد وحدتها، فالمرأة غالبا ليست في حاجة إلى

الوحدة، و إن كان الزواج يبدو أكثر ألما، ولكن هذا يعيدنا إلى الحكمة السابقة إذ من الضروري أن يتكبّد الإنسان كثيرا من الخسائر والآلام، وكثيرا ما يكون الزواج مزيلا من نوع ممتاز للأحلام والآمال العريضة التي تثقل كاهل الإنسان، لذلك يحسن بها أن تتخلّص من هذا كلّه، من أراد أن يتأكّد من أن الأحلام لا تتحقق فعليه بالزواج فإنّه له معلّم ومؤدّب، وبينما هو يغيّر من وضعه إذ أضحت قدمه اليمنى تؤلمه بعد اجتماع ثقل جسمه وضغط الحذاء عليها، لمح صورة العلم الجزائري إلى جانب شهرية وراء صندوق البائع مباشرة، و أعادت هذه الصورة مشهد تابوت المرحوم أمس في الجنازة وقد غطي بعلم كبير جاء به أحد الأقارب من قسمة المجاهدين، تغطية النعش بالعلم علامة على المكانة الرسمية للميت في الدولة، وهذه التغطية يحرم منها عامة الشعب اختياريا، ويتمتع بها رموز الدولة، نعم لقد كان الفقيد مجاهدا أيام الثورة، وبعد الاستقلال عمل في سلك الأمن وترقى إلى رتب عليا حتى صار مكونا للكوميساريا، وقضى معظم حياته في العاصمة حتى قبيل تقاعده، بنى مسكنا ضخما هنا بالبلدة وعندما كثرت زلازل العاصمة الطبيعية و الاجتماعية والأمنية أرسل بأسرته إلى هذه البلدة ريثما يكمل هو العدة الباقية له في سلك

الأمن والتي كان يعدّها باليوم انتظارا لعودته النّهائية إلى مدينته العزيزة التي طال شوقه إليها ، وفي العودة من رحلته العلاجية ما قبل الأخيرة من العاصمة قال وهو يعتنق نسائم البلدة الحارة ويستشرف قامات نخيلها الباسقة : هذا أعظم من أي علاج يمكن أن أتلقاه في العاصمة أو في غيرها ، هذه المدينة الصحراوية الصغيرة هي شفائي .. هواؤها ، حرّها ، طيبة أهلها ... لقد كره عيش العاصمة كرها شديدا ، و لكن العاصمة كانت كساحرة جانتية لم تفرّط فيه، وحرمته حلمه الأخير بموته في البلدة التي أحبها ، وذهب حيّا إليها آخر مرة، لتخرج الروح من بين يديها إذ هو يتكئ على صدرها ، ثمّ يعود في تابوت ليدفن تحت هذه الرمال الرهيبة، ويرتاح هناك في نعومتها إن كان هناك ارتياح، وابتسم العلمي كأنّه يسخر من أحلام الناس المتعلّقة بالموت ... كم هي سعادتهم وموتهم يتحقق في المكان الذي تمنوا أن يموتوا فيه، وكم هي سعادتهم وهم يدفنون في التراب الذي حلموا أن يدفنوا في باطنه، وكم هم سعداء بأن يموتوا بجانب أشخاص يحبون رؤيتهم في اللحظات الأخيرة، عجيب أمر الإنسان .. لا يتخلّى عن الأحلام حتى في موته ... وذكّرته هذه الخواطر بكلمات المؤبن بعد الدفن بالأمس وهو يشيد بوطنية الفقيد ومواقفه الصارمة في ذلك، وتذكّر أيضا

أثنا ءها كيف خطر له أن يستحم ويغتسل فيما بعد، و قرر أنّه سوف يغتسل للحياة لا للموت، لأن بقا ءه حيا إلى الآن يعدّ فرصة عظيمة قد لا يجود بها عليه الموت مرة أخرى، لذا قرر أن يكون اغتساله مختلفا عن غسل الميت، وفكّر في رائحة الصابون ونعومته وهو يزحف كالوديان الفضية بين تضاريس جسمه، ورجح في ذهنه أنّ حلما كهذا يعدّ أكثر واقعية من أحلام المقبلين على الموت، وفجأة وقعت عيناه على قوالب صابون كانت موضوعة على أحد رفوف المحلّ، وطلب من البائع أن يمنحه واحدة من نوع أليبي بقيمة ثلاثين دينارا، سلّمه إياها البائع في ابتسامة تدلّ على أنّه تذكر وجوب مراعاة مشاعر من مات صهره، ولكنه أردف ببرود : تعيش الصناعة المحليّة، فلفت انتباه العلمي وجود قطعة صابون أخرى من نوع بالموليف كانت إلى جانب القطعة السابقة، ولكنه فضل إبقا ء الأولى لظروف لا علاقة لها بفكرة مقاطعة السلع، وأخذ القطعة ووضعها في جيب سترته الداخلي فزاحمتها قطعة أخرى بنفس حجمها تقريبا، ولكنها لم تكن سوى علبة سجائر، وفكّر في أن يتناول واحدة، ويأخذ نفسا بالمرّة خارج المحلّ ريثما تتم عملية تعبئة السلع، وينهي البائع حساباته، ويعلمه بالمبلغ الإجمالي .. وقبل أن يشعل السيجارة عاود إخراج قطعة الصابون واشتمّ

رائحتها ، وقرر أن يأخذ الحمام الساخن الذي فكّر به أثناء الدفن كثيرا ، ولن يكون ذلك إلا بعد انتهاء مراسيم العشاء و توقف سيل الناس الذين لن يوقفهم سوى عشاء سخي يكون بمثابة إعلان عن عدم استعدادنا لمواصلة استقبالهم، وليتركوا الحزن لأهل الحزن، رحم الله فقيدهم، و ألهمهم الصبر والسلوان ...

أشعل هو السيجارة بينما كان صاحب المحلّ يوجّه الشباب لكيفية وضع أكياس الكسكسى، وقال موجها كلامه إلى العلمي : ذهبت البركة، كثير من الناس أعرضوا عن الكسكس في أفراحهم و أحزانهم، ولكن الجنائز اليوم صارت هي الأخرى فرصة للتباهي، صار الموز والبقلاوة في عشاء الميّت ...؟ غريب حقّا.

وحاول العلمي أن يبدي رأيا في الموضوع ولكنه رأى عدم أهميّة ذلك، ولمحت عيناه امرأة تنحني في لحاف رثّ على سلّة الخبز تجسّ الأرغفة بيديها ثمّ ترميها مرّة أخرى في قعر السلّة ممّا قوى عنده فكرة الاستحمام، وهي الوحيدة التي تكفل له الخروج من كآبة هذا اليوم و التزاماته الثقيلة ... لقد كانت فعلا الجارات والقريبات هنّ اللواتي يفتلن الكسكسى ويقوم الرجال بإحضار الخضار وتذبح شاة، ويعشّى الميت ببساطة ترفع من شأنه ويحسس أهله

بالمساندة وينتهي كلّ شيء، وهذا ما يدعوه بعضهم بالبركة، ولكن الآن لم يعد هناك إلا القليل ممن يقتنع بجدوى هذه البركة المزعومة، هذا السخاء الهستيري الذي يصيب الناس في الأعراس والجنائز خلقوا له وضعية توافق بتقليد بعضهم بعضا وبالاتكاء على سلع السوق فقد صار كلّ شيء جاهزا، وتولى الرجال عملية الطهي وكلّ ما يتعلّق بأمور الوليمة أو الوضيمة خاصة بعد انتشار تهم كثيرة موجهة للنساء عند تكفلهن بتلك المهمّة، و أخيرا تركت لهنّ فرصة كبيرة في ردّ الجمائل و إثبات وجودهن لصاحبات الفرح أو الجنازة ومن جئن إليهنّ ...

تمطّى العلمي قليلا ليشعر براحة أكبر في تناول السيجارة التي ما إن أخذ الأنفاس الأولى منها حتى سرى خمول وكسل لذيذان في عامّة جسده، و لاحظ أنّ البائع يهمّ بإغلاق باب مؤخرة السيّارة، فذهب ليكمل عنه المهمة، وانحنى البائع على الحاسبة ليسجل النتيجة النّهائية، ثمّ سلّمها للعلمي، وانتظر منه أن يقول شيئا على الأقل يؤكّد أنّهما على اتفاق، ولكن العلمي لم يقل شيئا بل راح يغلق الباب وطوى ورقة الحساب إلى جيبه وهو يأخذ أنفاسا متتالية من السيجارة التي كانت تصارع الفناء بين أصابعه ... وقال البائع : حسنا لا تقلق كما اتفقنا، ريثما

تصلح جميع الأمور .. ها ، وتمتم العلمي بكلمات شكر غير واضحة، وشغّل من جديد محرّك السيارة، وانطلق قافلا إلى حيث بيت الميّت.

(كلّ نفس ذائقة الموت، كلنا صائرون إلى هذه النّهاية أيها الإخوة الكرام، وعلى الإنسان أن يحرص ويستعدّ لهذا الموعد الذي لا حياد عنه، كم شيعنا بالأمس، وها نحن نشيع اليوم، فمن غدا يا ترى؟ لقد انتقل الفقيد إلى جوار ربّه بعد أنّ قضى عمرا يشهد له بالجهاد والإخلاص للوطن والاستقامة في الأخلاق، ولد سنة .... وعندما تفتحت زهرة شبابه لبّى نداء الوطن، والتحق بصفوف جيش التحرير الوطني ، وبعد الاستقلال قرر مواصلة خدمة الوطن، فعمل في سلك الأمن حتى تقاعده، وبعدها نشط في سلك المحاماة تكريسا للقانون وخدمة للمواطن، وينبغي أن نذكر في هذا المقام حادثا يدلّ على وطنية هذا الرجل، فقد ولد له ابن معاق، وكابد معه المعاناة، وقصد به أكبر أساتذة الطبّ في الجزائر، ولكنّهم دلّوه على حلّ واحد، و هو أن يعالجه في فرنسا ، وكان ردّ الرجل الوطني : لأن يدفن في تراب بلاده أفضل من أن تعيد له فرنسا الحياة بعلاجها .... لن أعالج عند فرنسا التي قاتلتها بالأمس عدوّة ....)

وفي تلك اللحظة التي كان فيها المؤبن الوقور يلقي كلماته هذه، قفز بصر العلمي إلى قبر الابن الذي تحدّث عنه المؤبن، وكان إلى جوار قبر جدّه، وها هو اليوم يلتحق بهم الجسر الواصل بعد أن توطّدت العلاقة بين القبرين، ولكنه انتبه فجأة إلى تزاحم الناس حول القبر، تزاحم غريب، مذ أن أديت صلاة الجنازة تملكه الاستغراب أولا من تسارع الناس في حمل النعش والذهاب به صوب القبر، وازدحموا حول الفوهة، كلّ الناس تتزاحم لرؤية الميّت وهو يلحد في قبره، غريب لو كان حيّا ما حظي بكل هذا السخاء من النّظرات، ولكنّهم في هذه اللحظة يتذكّرون أنفسهم، كلّ هذا التراب يمكن أن يهال عليهم، ويغلق عنهم باب العودة إلى الحياة الدنيا إلى الأبد، ولكن لا أحد يفكّر بلقاء قد يكون في الآخرة رغم إيمانهم بذلك، المهمّ هو الآن لا بد أن يذهب هذا الميّت إلى قبره، فالقبور للأموات، الأموات المكلّلين بالقداسة الذين يعكرون على الأحياء صفو حياتهم، ولكن كلّ حي هو مشروع ميّت عاجلا أم آجلا، كلّ شبر من الأرض هو مشروع قبر، ولتذهب الأجساد الحالمة إلى برودة التراب وكائنات الأرض الجائعة ....

كم معصية سيحملها جسدك إلى مولاك أيها العلمي، خذ موعظة من صهرك الحميم، ولو للحظات تطهّر بها تفكيرك،

وتغسل بها ذهنك من كلّ شيء ... ولكن رائحة الصابون في الحمام طغت على كلّ شيء، طغت حتى على رائحة تراب المقبرة وغباره، رائحة مغسل الحياة أقوى من رائحة مغسل الموت لماذا لم يستوعب الإنسان أن قوّة الأحياء أعظم من قوة الأموات؟

الإنسان يجبن أمام الموت كثيرا، وما ابتكاره لهذه الطقوس إلا للتخفيف من آلام هذه الحقيقة التي لا مهرب منها، لقد صاغ جبنه في طقوس وقار وهيبة تثبت تدينه و إيمانه و إدّعاءه الوفاء لأمواته الأعزّاء، والله وحده يعلم إن كانوا سيسرّون بما نفعل في سبيلهم، ولقد مرّ العالم البشري دهورا لا يملك من حقائق العالم الآخر إلا ما توحي به الأوهام والمخاوف، فالخيال أخصب ما يكون في أحوال الخوف، ولولا مقتضيات الإيمان لتساءل الإنسان حتىّ عن الحقائق المؤكّدة التي جاء بها الدين، وإن اختلفت عن التصورات الخرافية فإنّها تصرّ على رسم صورة مرعبة لحياة ما بعد الموت، حتّى النّعيم الذي تقرره العقيدة يبدو بصورة ما مفزعا، نعم إذا كان المرء مجبرا على الإيمان بيقظة القبر والمحاسبة فماذا عساه أن يتصوّر تلك الحياة تحت هذه الأتربة التي ما هي إلا تكريم لجيفة بشرية، لذلك فإنّي بدوري أصرّ على هذا الحمام الساخن حتىّ أزيل آلامي من التفكير في

الموت، وأعطي للحياة مكانتها اللائقة، ولكنّي سأقوم على هذا العشاء حتى أجعله آخر الطقوس التي تطهّر وجودنا من ذلك السيل البشري الذي لا يكفّ عن النزيف أيام الجنازة ...

توقفت السيارة أمام منزل جار الميّت حيث المستودع الذي ستتم فيه عملية طهي طعام العشاء، أنزل العلمي السلعة بمساعدة أحد أبناء إخوته، لقد حضر الطبّاخ وفريقه، وبدأوا في عملية التقشير والتقطيع، وفتح رئيس الطهاة أكياس الكسكس بسرعة تشهد لمهارته وحنكته، ثمّ أفرغه في قصاع كبيرة ورشّه بالماء، ثمّ كلّف واحدا من الفريق لمواصلة تحضيره، وذهب هو لتقطيع اللحم حسب ما يناسب نصيب كلّ واحد، وأكّد للعلمي أنّ المائدة يجب أن تكون لخمسة أفراد، وسترفق كلّ واحدة بقارورة مشروب غازي بالإضافة إلى السلطة، نعم هكذا تسير الأمور، وانطلق في تسيير أمور الطهي ...

كان الجو دافئا في تلك القيلولة الخريفية، وانطلقت أبخرة الطهي ترسم سحائب بيضاء كثيفة وامتزجت الرطوبة بروائح الطعام، وسرعان ما جسّدت ملامح شخصية تجمع بين ميزات الولائم والوضائم حيث تلتقي بداية الحياة ونهايتها في تقاطع عجيب، تبدأ الحياة ملوحة بنهايتها المحتومة،

وتنتهي مبشرة ببدايتها المحتملة، ويظلّ هذا الأمل ينازل اليأس في ميدان الدنيا حتى يصرع الموت الحياة في آخر جولة له، ولكنّ العالم الآخر يعد بأبدية تجسّد النّصر الأخير للحياة، إنّ الحياة أقوى و أبقى، ولكن هل تستطيع الحياة أن تحسّ بوجودها لولا وجود الموت؟ ما الذي سيبرهن لها عن قوتها ؟ أيوجد سوى الموت ...؟

أذّن العصر فاحتج العلمي بينه وبين نفسه بضرورة وجوده إلى جانب فريق الطبخ والقيام على العشاء فصلّى العصر في مكان قريب هناك، ثمّ عاد ليراقب العملية، وعاد مرّة أخرى ليأخذ مسبحته من أحد أدراج السيارة، وخاطبها في ضميره : أخرجي أيتها المباركة في وقتك المناسب، يستعملها في أمسيات الجمع شاهدا حلقة الذكر الأسبوعية الكبرى، وما عدا ذلك فلا يعيرها اهتماما، لا يتمعنّ كثيرا في رائحتها ولونها وكأنّه لا يأبه بقدسية أسرارها العتيقة، ولكنها رمز وواجهة انتمائية لا بدّ منها، ولا بدّ من بروزها في وقتها المناسب، ستقيم بين أصابع يده اليمنى فلكا تدور حوله عشرات المرات ...

حضرت جماعة الذكر واجتمعت في الساحة المغطاة و المخصصة للعشاء، وكان الشباب قد جهزوها منذ اليوم الأول للوفاة حتى يجد النّاس مكانا للجلوس ومواساة أهل

الفقيد، في العادة الأولى أن يكون هناك سبعون رجلا كلّ منهم يذكر : لا إله إلا الله ألف مرة، عشرة مسابح، في كلّ مسبحة مائة حبّة، حين تلتقي حبّة العناب الحمراء ذات الرائحة المقدّسة بأنامل بشرية تعرف للذكر مقامه، وللموت قدره، ينطق اللسان بأفضل كلمة، تذهب بأجرها شافعة للميت الذي أقيمت من أجله هذه السبعينية، ولكن العدد الذي نسبت إليه في التسمية لم يعد الآن مقصودا في حدّ ذاته، بل يكفي أن يجتمع بعض الناس المخلصين ويقوموا بالذكر، فالأصل أنّ النيّة كافية، ودون أن يشعر وجد العلمي نفسه يصنّف الناس إلى مخلصين، ومجرّد أشخاص يريدون الظهور في الواجهة ....

لا إله إلاّ اللّه، لا إله إلاّ اللّه، لا إله إلاّ اللّه ... تبدو تلك الوجوه شاعرة بمعنى ما تقوله، يبدو عليها انقباض الإخلاص والاندماج في الأجواء الروحانية التي بدأ يشكّلها الذكر تدريجيا مع زيادة وتيرة الترديد : لا إله إلاّ اللّه لا إله إلاّ اللّه لا إله إلاّ اللّه، ونظر إلى بعض الوجوه الأخرى التي كانت تشي ملامحها بالمداراة والمصانعة، ولكن ماذا يهمّك أيّها العلمي من هذا كلّه؟ دع قلوب النّاس في صدورها، وانظر إلى قلبك البائس، طهّره الآن إن استطعت قبل أن يطهر الميّت الراحل، فقد رحل ولم يعد يشكّل أيّ خطر على

الحياة، ستمنحه هي بدورها ثلاثة أيام وعشاء كالذي سيتم بعد قليل، ويكون ذلك منها تعويضا معنويا عن رحيله، وستبقى أنت و أمثالك عبئا وخطرا على الحياة فبادر إلى طهارة روحك، و لا يهمّك الآن أن تعرف كيف يمكن أن يصل هذا الذكر إلى المرحوم، وكيف سيستفيد منه، فلعل الذين اقترحوه أول مرّة قد تكفلوا بذلك وكفوا من بعدهم مؤونة البحث عنه، ألم تتأكّد أن الحياة أقوى من الموت؟ لا تتوان إذن في التشرّب من عناصر القوّة ....

لا إله إلاّ اللّه لا إله إلاّ اللّـاااااااااااااااه سبحان ربّك ربّ العزّة عماّ يصفون والحمد لله رب العالمين ....

ومسح كلّ الحاضرين بأكفّهم على وجوههم ...

بدأت الموائد توضع على الأرض، وانقسم الناس إلى مجموعات، كلّ مجموعة مكونة من خمسة أشخاص، وضع إلى جانب كلّ مائدة كيس من قطع الخبز وقارورة مشروب

غازي، ونشطت حركة الإتيان بالطعام، وضع طبق الجاري والسلطة، ومعهما صحن كبير للكسكس، فوق كومته خمسة قطع من لحم البقر بحجم لا بأس به، وضعت كلها في صينية كبيرة تقدّم إلى كلّ مجموعة وتفرغ حالا، وكان العلمي يشرف على توجيه الأطباق، ويوصي بإعطاء المزيد من الخبز، ويأمر بطاسات الماء للموائد التي تحتاجها، وكان يشعر بأنّ صوته من الممكن أن يتعرّض لبحّة، ولكنه يواصل على أيّة حال رغبة في أن تنتهي هذه المراسيم خاصة وهو يرى سيل الناس يتجمع حتى أنّه لم يعد يميّز بين الذين يحيّونه ويتبرّعون بالأدعية، وما إن بدأ مدّ الناس ينحسر ويتراجع أمام ضعف ضوء النّهار الذي أمسى يقترب من المغيب حتى شعر ببعض الهدوء يعود إليه، ولكن أذنه الآن صارت مهوى لأصوات لا حصر لها، أطباق تغسل، موائد ترفع، أدعية تلقى، تحايا تبادل، ملاحظات حول الطعام، حول الميت، حول الطقس، حول غلّة التمر، حول السوق، حول أهله، حول أشخاص ماتوا، حول .....

أخذ كأسا من الشاي، وانتحى مكانا هادئا وجلس هناك كأنما يلقي بكامل ثقل جسده على الأرض، ثمّ أشعل سيجارة بدت كانفجار في ذلك الظلام المتهاوي كالذباب، وارتشف رشفات من الشاي، و أخذ أنفاسا متتالية من

سيجارته، وأحسّ التعب يتغلل في مفاصله، والآن يجب أن يتفرّغ للحمام السّاخن، و تحسّس جيب سترته الدّاخلي يتفقّد قطعة الصابون، ولكنّه لم يجد قطعة الصابون تلك ففار دمه تحت جلده، وهمّت براكين غضبه بالانفجار حتّى كاد أن يطلق شتيمة في الظلام تهتزّ لها كلّ أركان الاحترام والوقار، و تفرغ ما في داخله من قلق، ولكنّه تذكّر أنّه وضعها في أحد أدراج السيارة عندما أراد أن يأخذ المسبحة، فعاد الهدوء إليه مجددا ليشعر بثقل التعب يتفاقم عليه، وفكّر في أن يؤجّل حمّامه إلى الصباح، ولكنّه ما إن أنهى سيجارته ورمى بحثالة الشاي في الظلام حتّى هبّ واقفا وتمطّى بجسده واستدار إلى جهة البيت، ولوّح بيديه مقبوضتن في حركة لا مرئية، وقال بصوت مسموع :

– والآن قد انتهى كلّ شيء.

يوم للمطر .. والهذيان ...

فنجان قهوة ..

قطعة خبز ..

قليل من الزبدة ..

ومن الماء كوب ..

وجبة خفيفة من أخبار: الجزيرة هذا الصباح ...

ابتسامة ..

قبلة للصبيّ النّائم ...

قبلة وداع ...

دعاء : (أستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه ...)

تلكم هي إذن معالم سيمفونية الصباح اليومية، ومكونات طقوسها في حياة أستاذنا الفاضل زياد ... مع ملاحظة يجدر بنا التذكير بها وهي : أن الترتيب ليس ضروريا.

– المطر غزير، والبرد شديد، وفي بقائك بهذا اللباس خطر على صحتك يا عزيزي .. : قالت زوجته.

– أحبّ المطر بجنون : ردّ الأستاذ زياد.

– ولكنّك ستمرض يا عزيزي، نزلة برد ستنسيك كلّ متعة: قالت الزوجة الشفوق.

– حسنا، مرض بنزلة برد – قال زياد كأنّه يفكّر – كم سيكلّفني ذلك؟

– أسبوع من المرض – زياد مواصلا كلامه ـ يعني أسبوعا من الألم والوجع، بالإضافة إلى علبة أسبرين بخمسين دينارا، و مضادّ حيوي بحوالي أربعمئة دينار، وقد أضيف مشروبا مضادّا أو مسكّنا للسعال الجافّ بمئة و ثلاثين دينارا، إذن فالمجموع .....

سأفكرّ في الأمر، وفي الواقع قد فكّرت، لا بأس بهذا الثمن، إنّه ثمن بخس مقابل وليمة مطر قلّ أن تجود بها سماء هذه البلدة.

وأتمّ كلامه بضحكة نثرها على تلك المحاورة وتلك الطقوس المذكورة أعلاه كما يذرّ الملح على الطعام.

خرج من البيت تحت رذاذ المطر، دون أن يلبس شيئا يحميه من البلل أو حتّى يحمل مطرية، وابتسم للرذاذ وهو يهمس :

– أليس من الحمق أن لا تجيب السماء إذا دعتك لوليمة مطر ...؟

إنّه الآن كلّما شقّ هذا الطريق رأى نفسه ينتصر يوما بعد يوم على ذلك الإحباط والقلق الذي يسيطر عليه عند خروجه صباحا منذ بدأ مهنة التدريس، كان في البداية يرشي القلق والإحباط بفتات من نجاحات متناثرة، وانتصارات متفرقة في مساحة مشواره في التدريس، شهادات ثناء، واعترافات، ونتائج بالأرقام، ورغبات مصرّح بها، بل وأحلام في أن يحظى أحدهم بتدريسها، أصبح يستجمعها كلّ يوم ويلوكها عدّة مرّات حتى تثمر رشوة يبتعد بها القلق عن ساحته ساعات، وحتى أيام في مواسم جوده وكرمه ...

ها قد نال منه الرذاذ لمجرّد التهامه عددا من الأمتار لا يساوي ربع المسافة التي عليه أن يقطعها، ولكنّه لا يزال يصرّ على التنعم بهذه الوليمة السماوية التي نادرا ما يتكرّم بها هذا المناخ الصحراوي الشحيح، وحين اشتدّ تصادم حبّات المطر بوجهه شعر أنّه قد يكون الآن أسعد من مزارعي البطاطا وهم يستقبلون هذه الهبة الإلهية التي ستعفيهم أياما من السقي، وتوقف أرقام عداد الكهرباء ولو مؤقتا، ولكنّهم على أيّة حال يستحقون الاحترام لأنّهم تحدّوا ظروف المنطقة وحولوا رمالا بورا لا تصلح لمثل هذه الزروع إلى حقول خضراء تخزن أطنانا من البطاطا حتى غدت هذه الناحية الصحراوية من أهمّ مصادر تمويل القطر

الجزائري كلّه بهذه المادّة الغذائية التي أضحت أساسية للطبخ سواء في البيوت أو المطاعم ...

تحيّة للبطاطا، تحيّة للمزارعين، تحيّة للرذاذ، وعليه الآن أن يستعدّ لباقة التحايا التي ستلقى على وجهه من طرف تلامذته السابقين الذين يدرسون في الثانوية، يبتسمون له مع الاحتفاظ ببقية هيبة تؤطر نظراتهم ...

و مرّ تلميذان كأنّهما لم ينتبها له، وهمس بتحية صامتة تنفلت من بين شفتين تهتزّان بهدوء، وواصل الطريق وأفواج التلاميذ والتلميذات تتابع كتتابع قطرات المطر، ولكن لا أحد يلقي إليه التحيّة، بل إنّهم يتحاشون النّظر إليه، وإذا حصل أن التقت عيناه بعيني أحدهم أشاح الأخير بوجهه، ولم يأبه في البداية للأمر، ولكنه أخذ يتفاقم كلّما خطا خطوة في هذه الطريق الطويلة التي تتبرع عليه برياضة صباحية يقولون إنّها من أفضل الرياضات، إذن لابدّ أنّ في الأمر شيئا ما، وعليه يجب أن يتعامل مع الأمر بهدوء تام، وعليه أن يكتشف الأسباب أيضا، وإذا استلزم الأمر عليه أن يرمي الفكرة برمّتها في سلّة المهملات، وذلك وفقا للنظريات التي يضعها لواقعه هذه الأيام مستخلصا إياها من كتاب ديل كارنجي : دع القلق وابدأ الحياة : لن أسمح للقلق أن يتسرّب لحياتي، لا تحطّمك التوافه،

التمس الأعذار، أهمّ شيء في الموضوع هو أنت ... واصل الطريق، والحال مستمرّة على ما هي عليه، وحين وصل المدرسة ودخلها فوجئ بنفس المعاملة من العمال، والأساتذة، وحتى من التلاميذ، وكادت تطوّح به رياح الحيرة لولا هذا التماسك الذي أصبح يفرضه على نفسه بل جعله يأنف حتى عن سؤال أحدهم في الموضوع، لماذا تتغيّر الأمور بهذه السرعة؟ وأجاب هو نفسه عن سؤاله : غريب ... أسوأ احتمال في حياتك هو أن تتغيّر الأمور بأسرع مما نتوقع، وأحسن احتمال هو نفسه أن تتغيّر الأمور بأسرع مما نتوقع؟

درّس الحصّة الأولى، ومرّت كأنّه وحده في الفصل، لا مشاركة، ولا أجوبة، ولا حتىّ تشويش أو تبادل نظرات، كان عدم الاكتراث يملأ الوجوه، وكادت قواه تخور، لكنّه أعاد نفسه لنظرياته الجديدة، وحاول أن يغيّر الجوّ بإبداء ملاحظة ما : أكون سعيدا عندما ينزل المطر ولو كنت في الأصل حزينا .. ولم تحرّك هذه الملاحظة ساكنا، قوبلت بفتور تامّ مصطدمة بفراغ رهيب، وما إن انتهت الحصّة حتى جمع وثائقه و محفظته، وقصد قاعة الأساتذة ليقضي ساعة من فراغ هناك، وبعد حوالي خمس دقائق حضر أحد أعوان الاستشارة التربوية ليخبره أنّ السيّد مستشار التربية يريد

رؤيته في مكتبه، فذهب إليه وجلس عندما أشار له صاحب المكتب بذلك، و آلمه أن يشير له بهذه الطريقة اللامبالية، يجمع أوراقا، ويرمي بقلم في السلّة دون أن ينظر إلى هذا الأستاذ الواقف، ولكنّه ضغط على نفسه بتقزيم سبب هذا القلق، و أصلا لماذا يجب عليه أن يقلق، مادامت هذه المعاملة السيئة تسيء لصاحبها أكثر مما تسيء إليه ...

وجلس واثقا من نفسه بعد التعبئة النظرية التي استغرقت ثوان قليلة، و رفع المستشار إليه نظره، وقال له في حزم : يؤسفني أنّك لا تبدي تأثرا بالأمور، ألم تلاحظ شيئا ؟

وأجابه محاولا إشعاره بمدى برودته في مواجهة مثل هذه الأمور :

- آه .. حقّا ماذا يجري؟ ما هو الأمر بالضبط؟

ضبط صاحب المكتب نفسه وقال :

- في الحقيقة .. آ .. لا أستغرب أنك لا تصدّق شيئا، فأنا أيضا أثق فيك، وأقدّر لك ما حظيت به طيلة سنوات من سمعة طيّبة كأستاذ ناجح، ولكن السيل قد بلغ الزبى، الأمر يا أستاذ زياد قد تفاقم ولم يعد من المعقول السكوت عليه، شكاوى الأولياء، وكلام القاصي والداني، لم يعد الأمر يتعلّق بسمعتك وحدك، بل سمعة المدرسة كلّها صارت مرهونة بحسم هذه القضيّة، لا بد أن يبتّ في أمر

هذه الإشاعات المحيطة بسيرتك هنا في المدرسة، وكاد أن يرتفع صوت المستشار إلى حدّ لا يمكن السماح به، ولكن الأستاذ زياد بقي محافظا على هدوئه يفكّر في هذه الإشاعات التي لا يعرف عنها شيئا ...

وحاول أن يستند إلى إحدى نظرياته الجديدة، وفكّر في أن النقد الموجّه للإنسان هو بقدر قيمته، فكلّما كانت قيمة الإنسان أكبر كلما زاد حجم النقد الموجّه لصاحب هذه القيمة الكبيرة، وإذا كان هناك شيء من العيوب المنتقدة موجود فعلا في هذا الشخص فالأولى أن يصلح أخطاءه لا أن يضيع الوقت في الغضب، والضجيج، والثورة على نقاد حياتنا، فإكراما لهؤلاء الذين نذروا أنفسهم لنقدنا أن نترك لهم هذا الاختصاص، ونشتغل نحن باختصاصنا الذي هو إصلاح أنفسنا ...

وانتبه الأستاذ زياد إذ هو مطرق يفكّر إلى أنّ السيّد المستشار قد حضر الآن، وأنّه لم يقل شيئا مما فكّر به سابقا، بل جلس المستشار مبتسما وهو يخبر الأستاذ زيادة عن تعويض بعض الحصص نظرا لغياب بعض الأساتذة ...

وعند خروجه من المكتب حاول طيلة سيره في الرواق أن يفكّر فيما حصل، وكذلك ما حصل في الصباح حين كان

يشقّ الطريق إلى هذه المدرسة، وعليه فقد أرسى دعائم النّظرية الجديدة التي مفادها : أنّه لا وقت للناس كي ينشغلوا بمشاكلنا، نعم يكفيهم ما هم فيه من مشاكل ...

ولكنّه ما زال لم يقتنع تماما بأنّ ما حصل، هو مجرّد أفكار تدور في الذهن أو أنّه يتوهم، حتى قرر أنّه لن يقتنع بذلك كلّه إلا إذا سلّم بأنّ ما يحصل منذ الصباح إلى الآن هو حلم أو كابوس أو هذيان حتّى ...

ولكن المطر ما برح يشتدّ مما يعزّز شعوره باليقظة ، وواصل بقية حصصه إلى غاية المساء، وحينما خرج كان المطر ينهمر بشراسة، وقد غرقت الطرقات في سيول جارية، وتكاد تخلو من المارة، وفكّر الأستاذ زياد في أنّه لو سار تحت هذه الأجواء وبقي المطر على هذه الوتيرة فسوف تغمره المياه إلى أنفه عندما يصل إلى البيت، وحاول أن يحتمي بالجدران وفكّر في ركوب سيارة أجرة كي توصله إلى البيت، ولكنّ واحدة منها لم تظهر، وانتظر قليلا على أمل ظهور إحداها، ثمّ قرر مواصلة السير إذ بدا له أنّ الوقت ليس في صالحه، وحاول أن يستنجد بالجدران ولكنها لم تعد تجدي نفعا، ولم يدر كيف فكّر في حلم الموظفين في أن يشتري أحدهم سيارة بالتقسيط، إنّه حلم واقعي قياسا بوضع الموظفين ورواتبهم ...

لم يعد هناك أي حائل يحول بينه وبين مواجهة هذا المطر، ستبلغ به هذه الوليمة المطرية إلى حدّ التخمة ... وأحسّ بدغدغة تتصاعد في أنفه حتى تمخضت عن ثلاث عطسات متتالية : مرحبا بالسيّدة الأنفلونزا ضيفة هذه الأيام.

كانت أبخرة المياه تملأ الأفق، وبلغت المياه نسبة كبيرة في السيلان، وشعر بمعركة سيول الماء النازلة وكأنه في وعاء كبير يمتلئ ماء، ثمّ رمي وسطها بقرص كبير من الدواء فتفاعلت مركباته بالماء، فزادت القطرات، وتصاعد الدخان ...

وكاد يتملكه الرعب عندما زاد بطء سيره، ولم يعد هناك شيء يمكن أن يتعلق به، لا بد له أن يواصل و يستمرّ، ولتصل المياه إلى حدّ ما تريد، ولكن غزارة المطر استمرّت تزداد حتى أن زياد الأستاذ لم يعد يقوى على الرؤية والطريق مليئة بالسيول الجارفة، وفكّر مرارا أنّ أهله سوف يتصلون به على هاتفه النقال، ولو أخرج هاتفه الآن ليتصل بهم لغرق هو الآخر في المياه، ثمّ حدث أمر عجيب - سبحان الله.

- كأنّ يدا كبيرة تمتدّ لتنقذه من هذه العاصفة المائية، وكأنّها أخذت الماء كلّه في قبضتها لترفعه عاليا وتهوي به من جديد، في قبضتها و سيطرتها بينما هي تهمس

قائلة:

– اشرب يا عزيزي هذا الدواء حتى يخفف عنك بعض الحمّى، لا شكّ أنها شديدة جدّا، تركتك الليل بطوله تهذي وتلغط، ولكن عليك في الصباح أن تذهب إلى طبيب يصف لك علاجا لهذه الحمّى الشديدة.

قصّـة حيــاة
(قصص قصيرة جدّا)

1 ـ وجــود ...
ظلام دامس ...
رطوبة جدّ عالية ..
حركة .. اضطراب .
فجأة ...
ضياء يبهر العين ...
أصوات غريبة يسمعها لأول مرّة ..
لقد ولد اللحظة .

2 ـ خطوة وكلمة ...
خطا نصف خطوة ...
لفظ نصف حرف ...
تكلم نصف كلمة ...
ثمّ : خطا خطوة، لفظ حرفا، تكلّم كلمة ...

قالت جدّته : كم كان جميلا حين كان لا يحسن الكلام ...

3 ـ درس في الجغرافيا

حدث ذلك قبل قراءته لكتب الجغرافيا ...
ولكنه فهمه بعد ذلك ...
الدرس : يحتاج سطح الأرض إلى قرون حتّى تتغيّر تضاريسه ...
وأغلب التغيّرات تسبقها كوارث .. .
الاستنتاج :
جغرافيا الإنسان تحتاج إلى وقت أقلّ ...
ولكنّ كوارثها تعقب تغيّراتها ...
الخلاصة : البلوغ .

4 ـ أمنية

بدأ ينفّذ فكرته بعد أن انطلق في تحديدها من أكثر من رأي.
ولكنّه ما إن خطا خطواته الأولى حتى سار في الاتجاه المعاكس للخطة التي رسمها قبل انطلاقه، وحاول بجهد كبير أن يراعي ما تستوجبه الشريعة و ما تستلزمه الحياة

المعاصرة...

غير أنّ أمله كان بلا حدود حتى عند وصوله إلى النّقطة الساخنة في حسم أمر هذه الزيارة الخاصة التي أزمع القيام بها مذ ضرب له أحد الأصدقاء في المهجر موعدا يكون فيه حصاد الرحلة تحقيقا لأمنية كانت تراوده دائما وهي أن يقف ولو لحظة أمام مبنى : قناة الجزيرة .

5 ـ كابوس الحقيقة ...

بعد أن ركب السيّارة أغلق جميع زجاجها...

ألقى نظرة على النّاس من خلال زجاج السيارة

لم يصدّق...

فرك عينيه ولم يصدّق...

قطع ذات الخمسين دينارا تملأ الشوارع...

بل هي التي تسير في الطرقات...

اعتبره مجرّد كابوس، ومضى بسيارته...

أوقفه شخص، وفتح الباب دون أن يستأذنه...

قال وهو يشدّ الحزام غير مكترث :

- أريد مديرية الفلاحة...

سار مستغربا ومتسائلا...

ولكنّه تذّكر لائحة ضوئية فوق سيارته مكتوبا عليها :

ـ تاكسي.

وتأكّد من حقيقة الكابوس حين سلّمه قطعة نقدية من فئة الخمسين دينارا.

6 ـ السرّ الغريب...

قد كانت سيّارة حمراء...

تسير بسرعة متوسّطة...

ثمّ وقفت عند مدخل شارع طويل.

ولكن الباب قد فتح..

من تحت السيارة تبدو :

قدمان تسيران نحو الشارع.

لحظات ثمّ يبتلع الظلام تينك القدمين

دقائق من السير في لجّة الصمت..

إيقاع خافت لخطوات تقرقع باعتدال.

يتوقف.

يصمت كلّ شيء.

صرير الباب ينتهك الصمت مجددا.

ينفتح الباب فتنفجر إضاءة من مصباح بعيد عن المدخل.

ينغلق الباب من جديد.

إضاءات متتالية لنوافذ الطابق الأعلى.

تنسدل الستائر وتغطّى كلّ النوافذ.
معذرة قارئي الكريم :
هل تريد الاستمرار في ملاحقة أسرار النّاس؟

7 ـ رعب...
جمع كلّ اللعب القديمة،
وبعض أدوات الحديقة التي كانوا
يلعبون بها...
وضعها أمامه مرتبة و منسقة بكيفية ما...
وراح يتأمّلها...
وفجأة لا حظ غياب إحدى لعبه...
قام ليبحث عنها في الغرفة...
انحنى ليأخذ مرآة كانت
ملقاة في إحدى الزوايا...
وفجأة أحسّ بالذعر لأنّه رأى صورة مرعبة
تنعكس في المرآة...
والتفت وراءه، ولكنه لم يجد شيئا
ونظر مرّة أخرى...
كان الوجه كثير التجاعيد...
يحيط به شعر كثّ كالقشّ.

وفم مفتوح سقطت أسنانه.
زاد ذعره...
وعاود التفاته مرّة أخرى...
لكنّه لم يجد الشبح أيضا،
فكرة الأشباح كانت تخيفه رغم عدم اقتناعه بوجودها.
وفجأة تذكّر شيئا :
صورته هو لم تكن موجودة في المرآة.
حينها أدرك فقط من يكون هذا الشبح.

الفهـرس

1 ـ نفّاطة في المولد..... 11
2 ـ قبة سيدي عبد المالك..... 21
3 ـ ذهب مع المطر..... 33
4 ـ رحلة في الظلام..... 39
5 ـ صورة من الحياة..... 47
6 ـ أوسكار..... 49
7 ـ ولدي يحيى..... 53
8 ـ البحث عن الأبوّة..... 59
9 ـ ذكرى من الصين..... 62
10 ـ أصواتهم.. وصمتها..... 64
11 ـ الطبقات..... 67
12 ـ أبوك الدايم الله..... 73
13 ـ على الحافة..... 87
14 ـ عشاء الميّت..... 95
15 ـ ...يوم للمطر و ... الهذيان..... 115
16 ـ قصّة حياة..... 125

أنجز طبعه على مطابع
ش.ذ.م.م. مطبعة الشهاب
ع. ڤرفي - باتنة